



القسم السابع

تفسير السور الكريمة

الحجر - النحل - الإسراء

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طُبع على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يُباع



بيروت

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسّر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم السابع

تفسير السور الكريمة
الحجر - النحل - الإسراء

تأليف
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

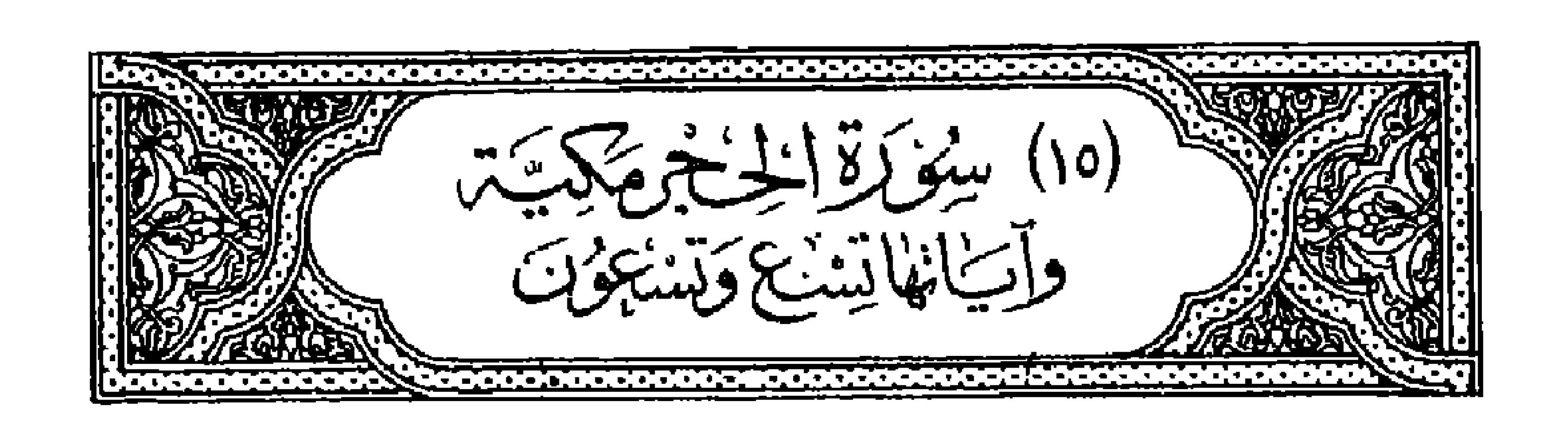
طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير
مَعالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يُباع

دار القرآن الكريم
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة، العمارية، الرياض



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة الحِجْر من السور المكية ، التي تستهدف المقاصد الأساسية للعقيدة الإسلامية « الوحدانية ، النبـوة ، البعث والجزاء » ومحور السورة يدور حول مصارع الطغاة والمكذبين لرسل الله في شتَّى الأزمان والعصور ، ولهذا ابتدأت السورة بالإنذار والتهديد ، ملفَّعاً بظلٍ من التهويل والوعيد ﴿ربما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين * ذرهم يأكلواْ ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ .

* عرضت السورة لدعوة الأنبياء ، وبينت موقف أهل الشقاوة والضلالة من الرسل الكرام ، فما من نبيٍّ إلا سخر منه قومه الضالون ، من لدن بعثة شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام ، إلى بعثة خاتم المرسلين ، وقد بينت السورة أن هذه سنة المكذبين ، في كل زمان وحين ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيَعِ الأولين * وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزئون . . ﴾ الآيات .

* وعرضت السورة إلى الآيات الباهرات ، المنبثة في صفحة هذا الكون العجيب ، الذي ينطق بآثار اليد المبدعة ، ويشهد بجلال عظمة الخالق الكبير ، بدءاً بمشهد السماء ، فمشهد الأرض ، فمشهد الرياح اللواقح ، فمشهد الحياة والموت ، فمشهد الحشر والنشر ، وكلُّها ناطقة بعظمة الله وجلاله ، وشاهدة بوحدانيته وقدرته ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم . . ﴾ الآيات .

* وعرضت السورة إلى قصة « البشرية الكبرى » قصة الهدى والضلال ممثلة في خلق آدم عليه السلام ، وعدوه اللدود إبليس اللعين ، وما جرى من سجود الملائكة لآدم ، واستكبار إبليس عن السجود ، واعتراضه على أمر الله وتوعده لذرية آدم ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشراً من صلصالٍ من حمإٍ مسنون . . ﴾ الآيات .

* ومن قصة آدم تنتقل السورة إلى قصص بعض الأنبياء ، تسليةً لرسول الله عليه السلام ، وتثبيتاً لقلبه الشريف لئلا يتسرب إليه اليأس والقنوط ، فتذكر قصة لوط ، وشعيب ، وصالح عليهم السلام ، وما حل بأقوامهم المكذبين .

* وتختم السورة الكريمة بتذكير الرسول ﷺ بالنعمة العظمى عليه ، بإنزال هذا الكتاب المجيد المعجز ، وتأمره بالصبر والسلوان على ما يلقاه من أذى المشركين ، وتبشره بقرب النصر له وللمؤمنين ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم . . ﴾ إلى آخر السورة الكريمة .

التسمية : سميت السورة الكريمة « سورة الحِجر » لأن الله تعالى ذكر ما حدث لقوم صالح ، وهم قبيلة ثمود ـ وديارهم في الحِجر بين المدينة والشام ـ فقد كانوا أشداء ينحتون الجبال ليسكنوها ، وكأنهم مخلدون في هذه الحياة ، لا يعتريهم موت ولا فناء ، فبينما هم آمنون مطمئنون جاءتهم صيحة العذاب في وقت الصباح ﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ .

* * *

اللغة : ﴿رُبَّما﴾ ربَّ للتقليل و ﴿ما﴾ نكره موصوفة أي رب شيء ﴿لوما﴾ للتحضيض كلولا وهلاً ﴿شِيَع﴾ جمع شيعة وهي الفرقة والطائفة من الناس ﴿نسلكه﴾ ندخله ، والسَّلْك : إدخال الشيء في الشيء ﴿يعرجون﴾ عَرَج : صعد ، والمعارج المصاعد ﴿سُكِّرت﴾ سُدَّت ومنعت ﴿بروجاً﴾ البروج : منازل الكواكب السيارة وأصله الظهور ومنه تبرج المرأة وهو إظهار زينتها ﴿لواقح﴾ جمع لاقح وهي الريح التي تحمل المطر ، والتي لا تأتي بخير تسمى الريح العقيم ، أو ملقّحة للشجر أي تحمل اللُّقاح له ﴿صلصال﴾ طين يابس يسمع له صلصلة إذا يبس ﴿حمأ﴾ الحمأ : الطين الأسود ﴿مسنون﴾ منتن متغير قال الفراء : هو المتغيرّ وأصله من سننتُ الحجر إذا حككته به ﴿السموم﴾ الريح الحارة القاتلة .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها ، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت إبطه فأنزل الله ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾[1] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟

التفسير : ﴿الر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن أي هذا الكتاب العجيب المعجز كلام الله تعالى وهو منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية الألف واللام والراء ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب ، الكامل في الفصاحة والبيان ، المتعالي عن الطاقة البشرية ، ﴿وقرآنٍ مبين﴾ أي قرآنٍ عظيم الشأن ، واضحٍ بيِّن ، لا خلل فيه ولا اضطراب ﴿رُبَّمَا يود الذين كفروا﴾ أي ربما تمنى الكفار ﴿لو كانوا مسلمين﴾ أي لو كانوا في الدنيا مسلمين ، وذلك عند معاينة أهوال الآخرة ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾

(١) أسباب النزول ١٥٨ والقرطبي ١٠/ ١٩.

وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا

أي دَعْهم يا محمد يأكلوا كما تأكل البهائم ، ويستمتعوا بدنياهم الفانية ﴿ويلههم الأمل﴾ أي يشغلهم الأمل بطول الأجل ،عن التفكر فيما ينجيهم من عذاب الله ﴿فسوف يعلمون﴾ أي عاقبة أمرهم إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا ، وهو وعيد وتهديد ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى الظالمة التي كذبت رسل الله ﴿إلا ولها كتاب معلوم﴾ أي إلا لها أجل محدود لإهلاكها ﴿ما تسبقُ من أمةٍ أجلَها﴾ أي لا يتقدم هلاك أمةٍ قبل مجيء أوانه ﴿وما يستأخرون﴾ أي ولا يتأخر عنهم قال ابن كثير : وهذا تنبيهٌ لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من العِناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك[1] ﴿وقالوا يا أيها الذي نُزّل عليه الذكر﴾ قال كفار قريش لمحمد ﷺ على جهة الاستهزاء والتهكم : يا من تزعم وتدعي أن القرآن نزل عليك ﴿إنك لمجنون﴾ أي إنك حقاً لمجنون ، أكّدوا الخبر بإنَّ واللام مبالغة في الاستخفاف والاستهزاء بمقامه الشريف عليه السلام ﴿لو ما تأتينا بالملائكة إن كنتَ من الصادقين﴾ أي هلاّ جئتنا بالملائكة لتشهد لك بالرسالة إن كنت صادقاً في دعواك أنك رسول الله !! قال تعالى رداً عليهم ﴿ما ننـزّل الملائكة إلا بالحق﴾ أي ما ننزّل ملائكتنا إلا بالعذاب لمن أردنا إهلاكه ﴿وما كانوا إذاً منظرين﴾ أي وفي هذه الحالة وعندئذٍ لا إمهال ولا تأجيل ، والغرض أن عادة الله تعالى قد جرت في خلقه أنه لا ينزل الملائكة إلا لمن يريد إهلاكهم بعذاب الاستئصال ، وهو لا يريد ذلك مع أمته ﷺ لعلمه تعالى أنه يخرج من أصلابهم من يعبد الله ، ففيه ردُّ عليهم فيما اقترحوا ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر﴾ أي نحن بعظمة شأننا نزلنا عليك القرآن يا محمد ﴿وإنّا له لحافظون﴾ أي ونحن الحافظون لهذا القرآن ، نصونه عن الزيادة والنقصان ، والتبديل والتغيير ، قال المفسرون : تكفَّل الله بحفظ هذا القرآن ، فلم يقدر أحد على الزيادة فيه ولا النقصان ، ولا على التبديل والتغيير كما جرى في غيره من الكتب فإن حفظها موكولٌ إلى أهلها لقوله تعالى ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ وانظر الفرق بين هذه الآية ﴿وإنّا له لحافظون﴾ حيث ضمن حفظه وبين الآية السابقة حيث وكل حفظه إليهم فبدَّلوا وغيَّروا ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيَع الأولين﴾ أي ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً في طوائف وفرق الأمم الأولين ﴿وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزءون﴾ أي وما جاءهم رسولٌ إلاّ سخروا منه واستهزءوا به ، وهذا تسلية للنبي ﷺ والمعنى كما فعل

(١) المختصر ٢/٣٠٨ .

عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ

بك هؤلاء المشركون فكذلك فُعل بمن قبلك من الرسل فلا تحزن ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾ أي كذلك نسلك الباطل والضلال والاستهزاء بأنبياء الله في قلوب المجرمين ، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب أولئك المستهزئين ﴿لا يؤمنون به وقد خَلَتْ سنةُ الأولين﴾ أي لا يؤمنون بهذا القرآن وقد مضت سنة الله بإهلاك الكفار ، فما أقرب هؤلاء من الهلاك والدمار ؟ ثم بيَّن تعالى أن كفار مكة لا ينقصهم توافر براهين الإيمان فهم معاندون مكابرون، وفي ضلالهم وعنادهم سائرون فقال ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلّوا فيه يعرجون﴾ أي لو فرض أننا أصعدناهم إلى السماء ، وفتحنا لهم باباً من أبوابها ، فظلوا يصعدون فيه حتى شاهدوا الملائكة والملكوت ﴿لقالوا إنما سُكّرت أبصارنا﴾ أي لقالوا - لفرطِ مكابرتهم وعنادهم - إنما سُدَّت أبصارنا وخُدعت بهذا الارتقاء والصعود﴿بل نحن قومٌ مسحورون﴾أي سحرنا محمد وخيَّل إلينا ذلك وما هو إلا سحر مبين قال الرازي : لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج ، وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه ،وإلى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكّوا في تلك الرؤية ، وبقوا مصرين على الكفر والعناد كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر ، والقرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله[1] ، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته فقال ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾ أي جعلنا في السماء منازل تسير فيها الأفلاك والكواكب ﴿وزيناها للناظرين﴾ أي زيناها بالنجوم ليُسرَّ الناظر إليها ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ أي حفظنا السماء الدنيا من كل شيطان لعين مطرود من رحمة الله ﴿إلا من استرق السمعَ فأتبعه شهابٌ مبين﴾ أي إلا من اختلس شيئاً من أخبار السماء فأدركه ولحقه شهاب ثاقب فأحرقه ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي﴾ أي بسطناها ووسعناها وجعلنا فيها جبالاً ثوابت[2] ﴿وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ أي أنبتنا في الأرض من الزروع والثمار من كل شيءٍ موزونٍ بميزان الحكمة ، بدقةٍ وإحكام وتقدير ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ أي ما تعيشون به من المطاعم والمشارب ﴿ومن لستم له برازقين﴾ أي وجعلنا لكم من العيال والمماليك والأنعام من لستم له برازقين ، لأننا نخلق طعامهم وشرابهم لا أنتم ﴿وإنْ من

(١) الفخر الرازي ١٩/ ١٦٧ (٢) قال الفخر الرازي : إن الأرض كرة في غاية العظمة ، والكرة العظيمة تكون كل قطعة صغيرة منها إذا نُظر إليها كالسطح المستوي فلا إشكال في بسطها مع أنها كرة والدليل قوله تعالى ﴿والجبال أوتاداً﴾ سماها أوتاداً مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية فكذا هنا . الرازي ١٩/ ١٧٠ .

مَّعۡلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا

شيءٍ إلاّ عندنا خزائنه﴾ أي ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ومستودعاته ﴿وما ننزّله إلا بقدر معلوم﴾ أي ولكن لا ننزله إلا على حسب حاجة الخلق إليه ، وعلى حسب المصالح ، كما نشاء ونريد ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ أي تلقّح السحاب فيدر ماءً ، وتلقّح الشجر فيتفتّح عن أوراقه وأكمامه ، فالريح كالفحل للسحاب والشجر ﴿فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه﴾ أي فأنزلنا من السحاب ماءً عذباً ، جعلناه لسقياكم ولشرب أرضكم ومواشيكم ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ أي لستم بقادرين على خزنه بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم في العيون والآبار والأنهار ، ولو شئنا لجعلناه غائراً في الأرض فهلكتم عطشاً كقوله ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ معين﴾؟﴿وإنّا لنحن نحيي ونميتُ ونحن الوارثون﴾ أي الحياة والموت بيدنا ونحن الباقون بعد فناء الخلق ، نرث الأرض ومن عليها وإلينا يُرجعون ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ أي أحطنا علماً بالخلق أجمعين ، الأموات منهم والأحياء قال ابن عباس : المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة [١] وقال مجاهد :المستقدمون : الأمم السابقة ، والمستأخرون أمة محمد ﷺ ، والغرضُ أنه تعالى محيطٌ علمه بمن تقدم وبمن تأخر ، لا يخفى عليه شيء من أحوال العباد ، وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته ﴿وإنَّ ربكَ هو يحشرُهم﴾ أي وإن ربك يا محمد هو يجمعهم للحساب والجزاء ﴿إنه حكيمٌ عليم﴾ أي حكيمٌ في صنعه عليمٌ بخلقه ، ولما ذكر تعالى الموت والفناء ، والبعث والجزاء ، نبّههم إلى مبدأ أصلهم وتكوينهم من نفسٍ واحدة ، ليشير إلى أن القادر على الإحياء قادر على الإفناء والإعادة ، وذكّرهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم ليحذروه فقال : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال﴾ أي خلقنا آدم من طين يابسٍ يسمع له صلْصلة أي صوت إذا نُقر ﴿من حمإٍ مسنونٍ﴾ أي من طين أسود متغيّر ﴿والجانَّ خلقناه من قبلُ من نار السموم﴾ أي ومن قبل آدم خلقنا الجانَّ - أي الشياطين ورئيسهم إبليس - من نار السموم وهي النار الحارة الشديدة التي تنفذ في المسامّ فتقتل بحرها قال المفسرون : عني بالجانّ هنا «إبليس» أبا الجنّ لأن منه تناسلت الجن فهو أصل لها كما أن آدم أصل للإنس ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصالٍ من حمإٍ مسنون﴾ أي اذكر يا محمد وقت قول ربك للملائكة إني خالق بشراً من

---

(١) هذا اختيار الطبري ، وقد فسرت الآية بثمان تأويلات ذكرها في البحر ثم قال : الأولى حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على الحصر البحر ٥/ ٤٥١ .

سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ

طين يابسٍ ، أسود متغيّر قال ابن كثير : فيه تنويهٌ بذكر آدم في الملائكة قبل خلقه له ، وتشريفه إيّاه بأمر الملائكة بالسجود له ، وامتناع إبليس عدوه عن السجود له حسداً وكفراً[1] **﴿فإذا سويتـه﴾** أي سويت خَلْقه وصورته ، وجعلته إنساناً كاملاً معتدل الأعضاء **﴿ونفخـتُ فيه مـن روحي﴾** أي أفضتُ عليه من الروح التي هي خلقٌ من خلقي فصار بشراً حياً **﴿فقعـوا له ساجديـن﴾** أي خروا له ساجدين ، سجود تحيةٍ وتكريم لا سجود عبادة ، قال المفسرون : وإنما أضاف الروح إليه تعالى على سبيل التشريف والتكريم كقوله « بيت الله ، ناقـة الله ! شهـر الله » وهي من إضافة الملك إلى المالك ، والصنعـة إلى الصانـع **﴿فسجد الملائكـة كلهـم أجمعون﴾** أي سجد لآدم جميع الملائكة لم يمتنع منهم أحد **﴿إلا إبليـسَ أبـى أن يكون مع السـاجدين﴾** الاستثناء منقطع لأن إبليس خلقٌ آخر غير الملائكة[2] ، فهو من نار وهم من نور ، وهم لا يعصون الله ما أمرهم وهو أبى وعصى ، فليس هو من الملائكة بيقين ، ولكنه كان بين صفوفهم فتوجه إليه الخطاب والمعنى : سجد جميع الملائكة لكنْ إبليس امتنع من السجود بعد أن صدر له الأمر الإلهي **﴿قال يا إبليس ما لكَ ألاَّ تكـونَ مع السـاجدين﴾** أي ما المانع لك من السجود ؟ وأيُّ داعٍ دعا بك إلى الإباء والامتناع ؟ وهو استفهام تبكيتٍ وتوبيخ **﴿قال لم أكـنْ لأسجـد لبشرٍ خلقتـه من صلصالٍ من حمـأٍ مسنـون﴾** أي قال إبليس : لا ينبغي ولا يليق لمثلي أن يسجد لآدم وهو مخلوق من طينٍ يابسٍ متغير ، فهو من طينٍ وأنا من نار فكيف يسجد العظيم للحقير ، والفاضل للمفضول ؟ رأى عدوُّ الله نفسه أكبر من أن يسجد لآدم ، ومنعه كبره وحسده عن امتثال أمر الله **﴿قال فاخرج منها فإنـك رجيـم﴾** أي اخـرجْ من السموات فإنك مطرودٌ من رحمتي **﴿وإنَّ عليـكَ اللعنـةَ إلى يوم الديـن﴾** أي وإن عليك لعنتي إلى يوم الجزاء والعقوبة **﴿قال ربِّ فأنْظرنـي إلى يـوم يُبْعثـون﴾** أي قال اللعين : أمهلني وأخرني إلى يوم البعث **﴿قال فإنك من المنظريـن إلى يـوم الوقتِ المعلـوم﴾** أي قال له الله : إنك من المؤجلين إلى حين موتِ الخلائق قال القرطبي : أراد بسؤاله الإنظار- إلى يوم يبعثون - ألا يموت، لأن البعث لا موتَ بعده، فأجابه المولى بالإنظار إلى يوم الوقت المعلـوم وهـو يوم موت الخلائـق ، فيمـوت إبليس ثم يُبعـث[3] **﴿قـال ربِّ بما أغويتنـي﴾** أي بسبب إغوائك وإضلالك لي **﴿لأزينـنَّ لهـم في الأرض﴾** أي لأزيننَّ لذرية آدم المعاصي

(١) المختصر ٢/ ٣١١ . (٢) قد حققنا ذلك في سورة البقرة والأعراف ، وتقدم قول الحسن البصري : « والله ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين » وانظر كتابنا « النبوة والأنبياء » ص ١٢٨ ففيه البيان الشافي . (٣) القرطبي ١٠/ ٢٧ .

﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

والآثام ﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ أي ولأضلَّنهم عن طريق الهدى أجمعين ﴿إلا عبادكَ منهم المخلَصين﴾ أي إلا من استخلصته من عبادك لطاعتك ومرضاتك فلا قدرة لي على إغوائه ﴿قال هذا صراطٌ عليَّ مستقيم﴾ أي قال تعالى : هذا طريق مستقيم واضح ، وسنة أزليةٌ لا تتخلف وهي ﴿إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي إن عبادي المؤمنين لا قوة لك على إضلالهم ﴿إلا مَن اتَّبعك من الغاوين﴾ استثناء منقطع لأن الغاوين ليسوا من عباد الله المخلصين والمعنى لكنْ من غوى وضل من الكافرين فلك عليهم تسلط ، لأن الشيطان إنما يتسلط على الشاردين عن الله ، كما يتسلط الذئب على الشاردة من القطيع ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ أي موعد إبليس وأتباعه جميعاً ﴿لها سبعة أبواب﴾ أي لجهنم سبعة أبواب يدخلون منها لكثرتهم وروي عن عليّ أنها أطباقٌ ، طبقٌ فوق طبق وأنها دركاتٌ بعضها أشد من بعض ﴿لكل بابٍ منهم جزءٌ مقسوم﴾ أي لكل جماعة من أتباع إبليس بابٌ معينٌ معلوم ، قال ابن كثير : كلٌّ يدخل من بابٍ بحسب عمله ، ويستقر في دَرَكٍ بقدر عمله[1] .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ المجاز المرسل في ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ المراد أهلها وهو من باب إطلاق المحل وإرادة الحالّ .

٢ ـ الاستعارة التخيليَّة في ﴿عندنا خزائنه﴾ فهو تمثيل لكمال قدرته ، شبَّه قدرته على كل شيء بالخزائن المودوعة فيها الأشياء، وإخراج كل شيء بحسب مااقتضته حكمته على طريق الاستعارة.

٣ ـ الطباق بين ﴿نحيي . . ونميت﴾ وبين ﴿المستقدمين . . والمستأخرين﴾ .

٤ ـ جناس الاشتقاق في ﴿خزائنه . . وخازنين﴾ .

٥ ـ السجع الذي له وقع على السمع مثل ﴿المجرمين ، الأولين ، المنظرين﴾ الخ .

لَطِيفَة : ذكر أن رجلاً أراد أن يمتحن الأديان أيها أصح وأحسن ؟ فعمد إلى التوراة والإنجيل والقرآن ـ وكان خطاطاً ـ فنسخ من كل كتاب نسخة بخط جميل وزاد فيها ونقص ، ثم عرض التوراة على علماء اليهود فقبلوها وتصفحوها وأكرموه بالمال ، ثم عرض الإنجيل الذي نسخه بيده على القسس فاشتروه

---

(١) المختصر ٢/٣١٢ .

بثمن كبير وأكرموه ، ثم عرض نسخة القرآن على شيوخ المسلمين فنظروا فيه فلما رأوا فيه بعض الزيادة والنقص أمسكوا به فضربوه ثم رفعوا أمره إلى السلطان فحكم بقتله ، فلما أراد قتله أشهر إسلامه وأخبرهم بقصته وأنه امتحن الأديان فعرف أن الإسلام دين حق . انظر تفسير القرطبي ١٠/ ٦ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن المتقين في جنات وعيون . . إلى . . واعبدْ ربك حتى يأتيك اليقين﴾ من آية (٤٥) إلى نهاية آية (٩٩) .

المناسَبَة : لما ذكر تعالى حال الأشقياء من أهل الجحيم ، أعقبهم بذكر حال السعداء من أهل النعيم ، ثم ذكر قصص بعض الرسل مع أقوامهم «لوط ، وشعيب ، وصالح» تسلية لرسول الله ﷺ ليتأسى بهم في الصبر ، ثم ذكر الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، وختم السورة ببشارته عليه السلام بإهلاك أعدائه المستهزئين .

اللغَــة : ﴿نَصَبٌ﴾ تعب وإعياء ﴿وجلون﴾ خائفون فزعون ﴿الغابرين﴾ الباقين في العذاب ﴿القانطين﴾ القنوط: كمالُ اليأس ﴿تفضحون﴾ الفضيحةُ: **أن** يُظهر من أمره ما يلزمه به العارُ، يقال : فضحه الصبح إذا أظهره للناس قال الشاعر :

ولاح ضوءُ هلالٍ كاد يفضحنا مثلُ القلامةِ قد قُصَّت من الظُّفُر[1]

﴿لعمرك﴾قسمٌ بحياة محمدﷺ أي وحياتك ﴿سكرتهم﴾ السكرة : الغواية والضلالة ﴿يعمهون﴾ يترددون تحيراً أو يعمون عن الرشد،والعَمه للقلب مثل العمى للبصر﴿المتوسمين﴾التوسُّم من الوَسم وهي العلامة التي يستدل بها على المطلوب يقال : توسَّم فيه الخير إذا رأى فيه أثراً منه قال ابن رواحة في رسول اللهﷺ :

إني توسَّمتُ فيك الخير أعرفه والله يعلم أني ثابتُ البصر[2]

وأصله التثبتُ والتفكر مثل التفرس وفي الحديث (اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)[3] ﴿الأيكة﴾ الشجرة الملتفَّة وجمعها أيْك ﴿الحِجر﴾ اسم وادٍ كانت تسكنه ثمود ﴿عضين﴾ أجزاءً متفرقةمن التعضية وهي التجزئة والتفريق ﴿اليقين﴾ الموت لأنه أمر متيقن .

سَبَبُ النّزول : روي أن النبي ﷺ خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال : أتضحكون وبين أيديكم الجنةُ والنار ؟ فشقَّ ذلك عليهم فنزلت ﴿نَبِّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾[4] .

---

(١) البحر ٥/ ٤٥٦ . (٢) القرطبي ١٠/ ٤٣ .

(٣) رواه الترمذي . (٤) القرطبي ١٠/ ٣٤ .

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا

التفسير : ﴿إنَّ المتقين في جنات وعيون﴾ أي إن الذين اتقوا الفواحش والشرك لهم في الآخرة البساتين الناضرة ، والعيون المتفجرة بالماء والسلسبيل والخمر والعسل ﴿أدخلوها بسلامٍ آمنين﴾ أي يقال لهم : أُدخلوا الجنة سالمين من كل الآفات ، آمنين من الموت ومن زوال هذا النعيم ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلّ﴾ أي أزلنا ما في قلوب أهل الجنة من الحقد والبغضاء والشحناء ﴿إخواناً على سُرر متقابلين﴾ أي حال كونهم إخوةً متحابين لا يكدِّر صفوهم شيء ، على سررٍ متقابلين وجهاً لوجه قال مجاهد : لا ينظر بعضُهم إلى قفا بعض زيادةً في الإنس والإكرام، وقال ابن عباس : على سررٍ من ذهب مكلَّلة بالدر والياقوت والزبرجد[١] ﴿لا يمسُّهم فيها نصَبٌ﴾ أي لا يصيبهم في الجنة إعياءٌ وتعب ﴿وما هم منها بمخرجين﴾ أي لا يُخْرجون منها ولا يُطردون ، نعيمهم خالد ، وبقاؤ هم دائم ،لأنها دار الصفاء والسرور ﴿نبِّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾ أي أخبر يا محمد عبادي المؤمنين بأني واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب ﴿وأنَّ عذابي هو العذاب الأليم﴾ أي وأخبرهم أنَّ عذابي شديد لمن أصرَّ على المعاصي والذنوب قال أبو حيان : وجاء قوله ﴿وأنَّ عذابي﴾ في غاية اللطف إذ لم يقل على وجه المقابلة (وأني المعذِّب المؤلم) وكل ذلك ترجيح لجهة العفو والرحمة[٢] ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾ أي وأخبرهم عن قصة ضيوف إبراهيم ، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، وكانوا عشرة على صورة غلمانٍ حسانٍ معهم جبريل ﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً﴾ أي حين دخلوا على إبراهيم فسلَّموا عليه ﴿قال إنَّا منكم وجلون﴾ أي قال إبراهيم إنَّا خائفون منكم ، وذلك حين عرض عليهم الأكل فلم يأكلوا ﴿قالوا لا توجَلْ إنَّا نبشرك بغلام عليم﴾ أي قالت الملائكة لا تخف فإنا نبشرك بغلام واسع العلم ، عظيم الذكاء ، هو إسحاق ﴿قال أبشرتموني على أنْ مسَّنيَ الكِبَر فبم تُبشِّرون﴾ أي قال إبراهيم أبشرتموني بالولد على حالة الكبر والهرم ، فبأي شيء تبشروني ؟ قال ذلك على وجه التعجب والاستبعاد ﴿قالوا بشرناك بالحق فلا تكنْ من القانطين﴾ أي بشرناك باليقين الثابت فلا تستبعدْه ولا تيأس من رحمة الله ﴿قال ومن يقْنَطُ من رحمة ربهِ إلا الضالّون﴾ استفهام إنكاري أي لا يقنط من رحمة الله إلا المخطئون طريق المعرفة والصواب ، الجاهلون برب الأرباب ، أما القلب العامر بالإيمان ، المتصل بالرحمن ، فلا ييأس ولا يقنط قال البيضاوي : وكان تعجب إبراهيم عليه السلام باعتبار

---

(١) زاد المسير ٤/ ٤٠٤ . (٢) البحر ٥/ ٤٥٧ .

خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾

العادة دون القدرة فإنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يخلق بشراً من غير أبوين ، فكيف من شيخ فانٍ وعجوزٍ عاقر ؟ ولذلك أجابهم بذلك الجواب[١] ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ أي قال إبراهيم ما شأنكم وما أمركم الذي جئتم من أجله أيها الملائكة الكرام ؟ ﴿قالوا إنّا أُرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ أي أرسلنا ربنا إلى قومٍ مشركين ضالين لإهلاكهم يعنون قوم لوط ﴿إلاّ آل لوطٍ إنا لمنجُّوهم أجمعين﴾ أي إلا أتباعَ لوط وأهلَه المؤمنين ، فسننجيهم من ذلك العذاب أجمعين ﴿إلا امرأتَه قدرنا إنها لمن الغابرين﴾ أي إلا امرأة لوط فقد قدَّر الله بقاءها في العذاب مع الكفرة الهالكين قال القرطبي : استثنى من آل لوط امرأته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين في الهلاك[٢] ﴿فلما جاء آل لوط المرسلون﴾ أي فلما أتى رسلُ الله لوطاً عليه السلام ﴿قال إنكم قومٌ منكرون﴾ أي قال لهم إنكم قوم لا أعرفكم فماذا تريدون ؟ ﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ أي قالوا له بل نحن رسل الله ، جئناك بما كان فيه قومك يشكُّون فيه وهو نزول العذاب الذي وعدتهم به ﴿وأتيناك بالحق وإنّا لصادقون﴾ أي أتيناك بالحق اليقين من عذابهم وإنا لصادقون فيما نقول ﴿فأَسْرِ بأهلك بقطع من الليل﴾ أي سرْ بأهلك في طائفةٍ من الليل ﴿واتَّبعْ أدبارهم﴾ أي كنْ من ورائهم وسرْ خلفهم لتطمئنَّ عليهم ﴿ولا يلتفتْ منكم أحدٌ﴾ أي لا يلتفتْ أحد منكم وراءه لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم فيرتاع ﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ أي سيروا حيث يأمركم الله عز وجل قال ابن عباس : يعني الشام ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوعٌ﴾ أي أوحينا إلى لوط ذلك الأمر العظيم أن أولئك المجرمين سيُستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحدٌ ﴿مصبحين﴾ أي إذا دخل الصباح تمَّ هلاكهم واستئصالهم ﴿وجاء أهلُ المدينة يستبشرون﴾ أي جاء أهل مدينة سدوم ـ وهم قومُ لوطٍ ـ مسرعين يستبشرون بأضيافه ، طمعاً في ارتكاب الفاحشة بهم ، ظناً منهم أنهم أناسٌ أمثالهم قال المفسرون : أخبر أولئك السفهاء أن في بيت لوطٍ شباناً مرداً حساناً فأسرعوا فرحين يبشّر بعضهم بعضاً بأضياف لوط[٣] ﴿قال إنَّ

(١) البيضاوي ٢٨٦ . (٢) القرطبي ١٠/ ٣٦ .

(٣) يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان : « تسامع القوم بأن في بيت لوطٍ شباناً صباح الوجوه ففرحوا بأن هناك صيداً ﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون﴾ والتعبيرُ على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة التي وصل إليها القوم في الدَّنس والفجور ، يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة مستبشرين بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرةً وعلانية ، هذه العلانية التي يترفع عنها الحيوان بينما أولئك -

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾

هؤلاء ضيفي فلا تفضحون﴾ أي هؤلاء ضيوفي فلا تقصدوهم بسوء فتُلحقوا بي العار وتفضحوني أمامهم ﴿واتقوا اللهَ ولا تُخـزون﴾ أي خافوا الله أن يحلَّ بكم عقابه ، ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكروه ﴿قالـوا أَولَمْ ننْهك عن العَالمين﴾ أي قالوا ألم نمنعك عن ضيافة أحد ؟ قال الرازي : المعنى ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحدٍ من الناس إذا قصدناه بالفاحشة[١] ؟ ﴿قال هـؤلاء بناتـي إن كنتـم فاعليـن﴾ أي هؤلاء النساء فتزوجوهنَّ ولا تركنوا إلى الحـرام إن كنتـم تريدون قضـاء الشهـوة قال المفسرون : المراد بقولـه ﴿بناتـي﴾ بناتُ أمته لأن كل نبيٍّ يعتبر أباً لقومه ﴿لعمـرك إنهم لفـي سكرتهم يعمهـون﴾ أي وحياتك يا محمد إن قوم لوط لفي ضلالهم وجهلهم يتخبطون ويترددون ، وهذه جملة اعتراضية جاءت ضمن قصة لوط قسماً بحياة الرسول ﷺ تكريماً له وتشريفاً قال ابن عباس: «ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرمَ على الله من محمد ﷺ وما سمعتُ اللهَ أقسم بحياة أحدٍ غيره »[٢] ﴿فأخذتهـم الصيحـةُ مشرقيـن﴾ أي أخذتهم صيحةُ العذاب المهلكة المدمرة وقت شروق الشمس ﴿فجعلنـا عاليهـا سافلَهـا﴾ أي قلبناها بهم فجعلنا أعالي المنازل أسافلها قال المفسرون : حمل جبريل عليه السلام قريتهم واقتلعها من جذورها ، حتى رأوا الأفلاك وسمعوا تسبيح الأملاك ثم قلبها بهم ﴿وأمطرنـا عليهم حجـارةً من سجيـل﴾ أي أنزلنـا عليهـم حجارة كالمطر من طين طبخ بنار جهنم ﴿إن في ذلك لآيـاتٍ للمتوسميـن﴾ أي فيما حلَّ بهـم من الدمـار والعذاب لدلالات وعلامات للمعتبرين ، المتأملين بعين البصر والبصيرة ﴿وإنها لبسبيلٍ مقيم﴾ أي وإن هذه القرى المهلكة ، وما ظهر فيها من آثار قهر الله وغضبه، لطريقٍ ثابتٍ لم يندرس ، يراها المجتازون في أسفارهم أفلا يعتبرون ؟ ﴿إنَّ في ذلـك لآيـةً للمؤمنيـن﴾ أي لعبرةً للمصدِّقين ﴿وإن كان أصحـاب الأيكـةِ لظالميـن﴾ أي وإنه الحال والشأن كان قوم شعيب ـ وهم أصحاب الأيكة أي الشجر الكثير الملتف ـ لظالمين بتكذيبهم شعيباً ، وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان ﴿فانتقمنـا منهـم﴾ أي أهلكناهم بالرجفة وعذاب يوم الظُلَّة قال المفسرون : اشتد الحر عليهم سبعة أيام حتى قربوا من الهلاك ؛ فبعث الله عليهم سحابة كالظلة ، فالتجئوا إليها واجتمعوا تحتها للتظلل بها ، فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم

القوم المجرمون يجاهرون بها ويتلمظون عليها ، وهي حالة من الارتكاس معدومة النظير ، فأما لوط فوقف مكروباً يحاول أن يدفع عن ضيوفه وعن شرفه ، وقف يستثير النخوة الآدمية فيهم ، ويستجيش وجدان التقوى لله وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم يعد فيها نخوة ولا شعور إنساني ، ولكنه في كربه وشدته يحاول ما يستطيع . » الظلال ١٤/ ٣١ .

(١) الفخر الرازي ١٩/ ٢٠٢ . (٢) الطبري١٤/ ٤٤ .

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا﴾

جميعاً ﴿وإنهما لبإمامٍ مبين﴾ أي وإن قرى قوم لوط وشعيب لطريق واضح أفلا تعتبرون بهم يا أهل مكة ؟ ﴿ولقد كذَّب أصحابُ الحِجْرِ المرسلين﴾ هذه هي القصة الرابعة وهي قصة صالح عليه السلام أي كذبت ثمود نبيَّهم صالحاً ـ والحجرُ وادٍ بين المدينة والشام وآثاره باقية يمرُّ عليها المسافرون ـ قال البيضاوي : ومن كذَّب واحداً من الرسل فكأنما كذب الجميع ولذا قال ﴿المرسلين﴾[1] ﴿وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين﴾ أي وأريناهم معجزاتنا الدالة على قدرتنا مثل الناقة وما فيها من العجائب فكانوا لا يعتبرون بها ولا يتَّعظون قال ابن عباس : كان في الناقة آيات : خروجُها من الصخرة ، ودنوُّ ولادتها عند خروجها ، وعظمُ خَلْقها فلم تشبهها ناقة ، وكثرةُ لبنها حتى كان يكفيهم جميعاً فلم يتفكروا فيها ولم يستدلوا بها[2] ﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾ أي كانوا ينقبون الجبال فيبنون فيها بيوتاً آمنين يحسبون أنها تحميهم من عذاب الله ﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾ أي أخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي ما دفع عنهم عذابَ الله ما كانوا يشيدونه من القلاع والحصون ﴿وما خلقنا السموات والأرضَ وما بينهما إلا بالحق﴾ أي وما خلقنا الخلائق كلَّها سماءها وأرضها وما بينهما إلا خلقاً ملتبساً بالحق ، فلذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء المكذبين لئلا يعم الفساد ﴿وإن الساعة لآتيةٌ فاصفحِ الصفحَ الجميل﴾ أي وإن القيامة لآتيةٌ لا محالة فيُجازى المحسنُ بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، فأعرضْ يا محمد عن هؤلاء السفهاء وعاملهم معاملة الحليم ﴿إنَّ ربك هو الخلاّقُ العليم﴾ أي الخالق لكل شيء ، العليمُ بأحوال العباد ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ أي ولقد أعطيناك يا محمد سبع آيات هي الفاتحة لأنها تثنّى أي تكرر قراءتها في الصلاة وفي الحديث (الحمدُ للهِ رب العالمين هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه)[3] وقيل : هي السور السبع الطوال ، والأول أرجح ﴿والقرآنَ العظيم﴾ أي وآتيناك القرآن العظيم الجامع لكمالات الكتب السماوية ﴿لا تمُدنَّ عينيكَ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أي لا تنظر إلى ما متعنا به بعض هؤلاء الكفار ، فإن الذي أعطيناك أعظم منها وأشرف وأكرم ، وكفى بإنزال القرآن عليك نعمة ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي لا تحزن لعدم إيمانهم ﴿واخفضْ جناحك للمؤمنين﴾ أي تواضعْ لمن آمن بك من المؤمنين وضعفائهم ﴿وقل إني أنا النذيرُ

(١) البيضاوي ٢٨٦ . (٢) زاد المسير ٤/ ٤١١ . (٣) أخرجه البخاري وهذا القول هو اختيار الطبري .

﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

المبين﴾ أي قل لهم يا محمد أنا المنذر من عذاب الله ، الواضح البيِّن في الإنذار لمن عصى أمر الجبار **﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾** الكاف للتشبيه والمعنى أنزلنا عليك القرآن كما أنزلنا على أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه ، فانقسموا إلى قسمين **﴿الذين جعلوا القرآن عِضين﴾** أي جعلوا القرآن أجزاءً متفرقة وقالوا فيه أقوالاً مختلفة قال ابن عباس : آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض ، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم له بقولهم سحر ، وشعر ، وأساطير ، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب مثل فعل كفار مكة **﴿فوربك لنسألنَّهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾** أي فأقسمُ بربك يا محمد لنسألنَّ الخلائق أجمعين عما كانوا يعملون في الدنيا **﴿فاصدعْ بما تُؤمرُ وأعرضْ عن المشركين﴾** أي فاجهر بتبليغ أمر ربك ، ولا تلتفت إلى ما يقول المشركون **﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾** أي كفيناك شرَّ أعدائك المستهزئين بإهلاكنا إياهم وكانوا خمسة من صناديد قريش **﴿الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر﴾** أي الذين أشركوا مع الله غيره من الأوثان والأصنام **﴿فسوف يعلمون﴾** وعيدٌ وتهديد أي سوف يعلمون عاقبة أمرهم في الدارين **﴿ولقد نعلم أنك يضيقُ صدرُك بما يقولون﴾** أي يضيق صدرك بالاستهزاء والتكذيب **﴿فسبِّح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾** أي فافزع فيما نالك من مكروه إلى التسبيح والصلاة والإكثار من ذكر الله **﴿واعبدْ ربك حتى يأتيك اليقين﴾** أي اعبد ربك يا محمد حتى يأتيك الموت ، سمي يقيناً لأنه متيقن الوقوع والنزول .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الإيجاز بالحذف في **﴿أُدخلوها بسلام﴾** أي يقال لهم أدخلوها .

٢ ـ المقابلة اللطيفة في **﴿نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾** مع الآية بعدها **﴿وأن عذابي﴾** فقد قابل بين العذاب والمغفرة وبين الرحمة الواسعة والعذاب الأليم، وهذا من المحسنات البديعية .

٣ ـ الكناية في **﴿أنَّ دابر هؤلاء مقطوعٌ﴾** كنّى به عن عذاب الاستئصال .

٤ ـ المجاز في **﴿قدرنا إنها لمن الغابرين﴾** أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مجازاً وهو لله وحده وذلك لما لهم من القرب والاختصاص لأنهم رسل الله أُرسلوا بأمره تعالى .

٥ ـ الجناس الناقص في ﴿الصيحة مصبحين﴾ وجناس الاشتقاق في ﴿فاصفح الصفح﴾ .

٦ ـ صيغة المبالغة في ﴿الغفور الرحيم﴾ وفي ﴿الخلاّق العليم﴾ .

٧ ـ الطباق في ﴿عاليها سافلها﴾ .

٨ ـ السجع بلا تكلف في مواطن عديدة مثل ﴿آمنين ، مصبحين ، معرضين﴾ .

٩ ـ عطف العام على الخاص في ﴿سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ .

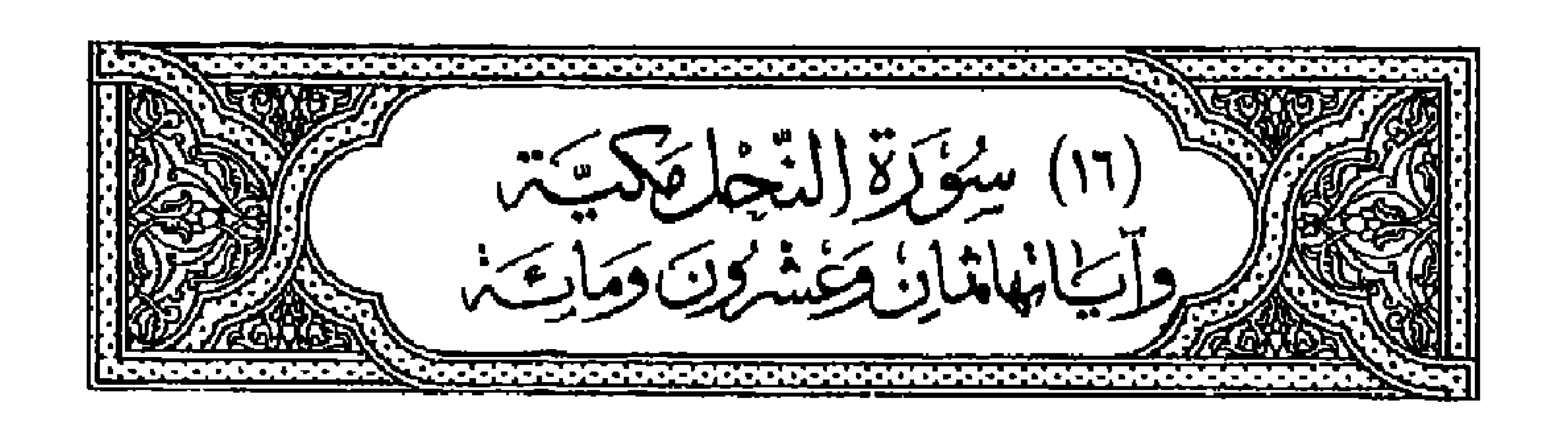
١٠ ـ الاستعارة التبعية في ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ حيث شبّه إلانة الجانب بخفض الجناح بجامع العطف والرقة في كلٍ واستعير اسم المشبَّه به للمشبَّه ، وهذا من بليغ الاستعارات لأن الطائر إذا كف عن الطيران خفض جناحيه .

تنبيه : الجمع بين هذه الآية ﴿فوربك لنسألهم أجمعين﴾ وبين قوله ﴿ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ وقوله ﴿فيومئذٍ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ أن القيامة مواطن ، فموطنٌ يكون فيه سؤال وكلام ، وموطنٌ لا يكون ذلك فيه ، هذا قول عكرمة ، وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا ، لأن الله عالم بكل شيء ، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لهم : لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه[1] ؟

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجر »

***

(١) القرطبي ١٠/ ٦١ .



بين يدي السورة

سورة النحل من السور المكية التي تعالج موضوعات العقيدة الكبرى « الألوهية ، والوحي ، والبعث والنشور » وإلى جانب ذلك تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في ذلك العالم الفسيح في السموات والأرض ، والبحار والجبال ، والسهولِ والوديان ، والماء الهاطل ، والنبات النامي ، والفلك التي تجري في البحر ، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل ، إلى آخر تلك المشاهد التي يراها الإنسان في حياته ، ويدركها بسمعه وبصره ، وهي صورٌ حيةٌ مشاهدة ، دالةٌ على وحدانية الله جلَّ وعلا ، وناطقةٌ بآثار قدرته التي أبدع بها الكائنات .

* تناولت السورة الكريمة في البدء أمر الوحي الذي كان مجال إنكار المشركين واستهزائهم ، فقد كذبوا بالوحي واستبعدوا قيام الساعة ، واستعجلوا الرسول ﷺ أن يأتيهم بالعذاب الذي خوَّفهم به ، وكلما تأخر العذاب زادوا استعجالاً وزادوا استهزاءً واستهتاراً .

* ولقد هدفت السورة الكريمة إلى تقرير مبدأ « وحدانية الله » جلَّ وعلا بلفت الأنظار إلى قدرة الله الواحد القهَّار ، فخاطبت كل حاسةٍ في الإنسان ، وكل جارحةٍ في كيانه البشري ، ليتجه بعقله إلى ربّه ، ويستنير بما يرى من آثار صنع الله على عظمة اللهِ سبحانه .

* ثم تتابعت السورة الكريمةُ تذكِّر الناس بنتيجة الكفر بنعم الله ، وعدم القيام بشكرها ، وتحذرهم تلك العاقبة الوخيمة التي يئول إليها مصيرُ كل معاندٍ وجاحد .

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والصبر والعفو عمّا يلقاه من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله .

التسمية : سميت هذه السورة الكريمة « سورة النحل » لاشتمالها على تلك العبرة البليغة التي تشير إلى عجيب صنع الخالق ، وتدلُّ على الألوهية بهذا الصنع العجيب .

اللغة : ﴿نُطفة﴾ النطفة الماء المهين الذي يتكون منه الإنسان ، مِن نطَف إذا قطر ﴿دفءٌ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ

الدفء : ما يستدفىء به الإنسان من البرد ﴿تُريحون﴾ الرَّواح : رجوع المواشي بالعشي من المرعى ﴿تسرحون﴾ السَّراح : الخروج بها صباحاً إلى المرعى ﴿أثقالكم﴾ الأثقال : الأمتعة جمع ثقل سميت أثقالاً لأنها ثقيلة الحمل ﴿جائر﴾ مائل عن الحق ﴿تُسيمون﴾ أسام الماشية تركها ترعى ، وسامت هي إذا رعت حيث شاءت فهي سائمة ﴿ذرأ﴾ خلق وأبدع ﴿مواخر﴾ أصل المخْر شقُّ الماء عن يمين وشمال يقال : مخرت السفينةُ إذا جرت تشق الماء مع صوت ﴿تميد﴾ تضطرب .

سَبَبُ النّزول : قال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى ﴿اقتربت الساعة﴾ قال الكفار بعضهم لبعض : إنَّ محمداً يزعم أن القيامة قد اقتربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ، فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد : ما نرى شيئاً مما تُخَوِّفنا به فأنزل الله تعالى ﴿أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه . .﴾[1] الآية .

التّفسِير : ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ أي قرب قيام الساعة فلا تستعجلوا العذاب الذي أوعدكم به محمد ، وإنما أتى بصيغة الماضي لتحقق وقوع الأمر وقربه ، قال الرازي : لما كان واجب الوقوع لا محالة عبّر عنه بالماضي كما يقال للمستغيث : جاءك الغوثُ فلا تجزع[2] ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزَّه الله عما يصفه به الظالمون ، وتقدس عن إشراكهم به غيره من الأنداد والأوثان ﴿يُنزِّل الملائكة بالروح من أمره﴾ أي يُنزِّل الملائكة بالوحي والنبوة بإرادته وأمره ﴿على من يشاء من عباده﴾ أي على الأنبياء والمرسلين ، وسمَّى الوحي روحاً لأنه تحيا به القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان ﴿أنْ أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ أي بأن أنذروا أهل الكفر أنه لا معبود إلا الله فخافوا عذابي وانتقامي ، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته فقال ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي خلقهما بالحق الثابت ، والحكمة الفائقة ، لا عبثاً ولا جُزافاً ﴿تعالى عما يشركون﴾ أي تمجَّد وتقدَّس عن الشريك والنظير ﴿خلق الإنسان من نُطفة﴾ أي خلق هذا الجنس البشري من نطفةٍ مهينة ضعيفة هي المنيُّ ﴿فإذا هو خصيمٌ مبين﴾ أي فإذا به بعد تكامله بشراً مخاصمٌ لخالقه ، واضح الخصومة ، يكابر ويعاند ، وقد خُلق ليكون عبداً لا ضداً قال ابن الجوزي : لقد خُلق من نطفة وهو مع ذلك يخاصم وينكر البعث ، أفلا يستدل بأوله على آخره ، وبأن من قدر على إيجاده أولاً قادرٌ على إعادته ثانياً[3] ؟ ﴿والأنعامَ خلقها﴾ أي وخلق الأنعام لمصالحكم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿لكم فيها دفء﴾

(١) زاد المسير ٤/ ٤٢٦ . (٢) الرازي ١٩/ ٢١٨ . (٣) زاد المسير ٤/ ٤٢٩ .

﴿وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ﴾

أي لكم فيها ما تستدفئون به من البرد مما تلبسون وتفترشون من الأصواف والأوبار ﴿ومنافع ومنها تأكلون﴾ أي ولكم فيها منافع عديدة من النسل والدر وركوب الظهر ، ومن لحومها تأكلون وهو من أعظم المنافع لكم ﴿ولكم فيها جمالٌ حين تُريحون وحين تَسرحون﴾ أي ولكم في هذه الأنعام والمواشي زينةٌ وجمالٌ حين رجوعها عشياً من المرعى ، وحين غُدوِّها صباحاً لترعى ، جمال الاستمتاع بمنظرها صحيحةً سمينةً فارهة ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس﴾ أي وتحمل أحمالكم الثقيلة وأمتعتكم التي تعجزون عن حملها إلى بلدٍ بعيد لم تكونوا لتصلوا إليه إلا بجهدٍ ومشقة ﴿إنَّ ربكم لرءوفٌ رحيم﴾ أي إنَّ ربكم أيها الناس الذي سخَّر لكم هذه الأنعام لعظيمُ الرأفة والرحمة بكم ﴿والخيل والبغالَ والحمير لتركبوها وزينةً﴾ أي وخلق الخيل والبغال والحمير للحمل والركوب وهي كذلك زينة وجمال ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ أي ويخلق في المستقبل ما لا تعلمونه الآن كوسائل النقل الحديث : القاطرات ، والسيارات ، والطائرات النفاثة وغيرها مما يجدُّ به الزمان وهو من تعليم الله للإنسان[1] ﴿وعلى الله قصدُ السبيل﴾ أي وعلى الله جل وعلا بيانُ الطريق المستقيم ، الموصل لمن يسلكه إلى جنات النعيم ﴿ومنها جائر﴾ أي ومن هذه السبيل طريقٌ مائلٌ عن الحق منحرفٌ عنه ، لا يوصل سالكه إلى الله وهو طريق الضلال ، كاليهودية والنصرانية والمجوسية ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ أي لو شاء أن يهديكم إلى الإيمان لهداكم جميعاً ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن يدع للإنسان حرية الاختيار ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ليترتب عليه الثواب والعقاب ، ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام ، شرع في ذكر سائر النعم العظام وآياته المنبثة في الكائنات فقال ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء﴾ أي أنزل المطر بقدرته القاهرة من السحاب ﴿لكم منه شراب﴾ أي أنزله عذباً فراتاً لتشربوه فتسكن حرارة العطش ﴿ومنه شجرٌ فيه تُسيمون﴾ أي وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم ﴿يُنبتُ لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها ﴿ومن كل الثمرات﴾ أي ومن كل الفواكه والثمار يخرج لكم أطايب

(١) قال في الظلال : « لقد جدَّت وسائل للحمل والركوب لم يكن يعلمها أهل الزمان ، والقرآن يهيء لها القلوب والأذهان بلا جحود ولا تحجر ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾حتى لا يقول الناس : إنما استخدم آباؤنا الخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها ، ولهذا هيأ القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال ما يتمخض عنه العلم ويتمخض عنه المستقبل » .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا﴾

الطعام ﴿إن في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون﴾ أي إن في إنزال الماء وإخراج الثمار لدلالة واضحة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يتدبرون في صنعه فيؤمنون قال أبو حيان : ختم الآية بقوله ﴿يتفكرون﴾ لأن النظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل ، واستعمال فكر ، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وُضعت في الأرض ومرَّ عليها زمن معيَّن لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به فيُشق أعلاها فتصعد منه شجرة إلى الهواء ، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرةً أخرى وهي العروق ، ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج الأوراق والأزهار ، والأكمام والثمار ، المشتملة على أجسامٍ مختلفة الطبائع والألوان والأشكال والمنافع وذلك بتقدير قادرٍ مختار وهو الله تعالى[1] ﴿وسخَّر لكم الليل والنهار والشمسَ والقمر﴾ أي ذلّل الليل والنهار يتعاقبان لمنامكم ومعاشكم ، والشمس والقمر يدوران لمصالحكم ومنافعكم ﴿والنجومُ مسخراتٌ بأمره﴾ أي والنجومُ تجري في فلكها بأمره تعالى لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾ أي إن في ذلك الخلق والتسخير لدلائل باهرة عظيمة ، لأصحاب العقول السليمة ﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه﴾ أي وما خلق لكم في الأرض من الأمور العجيبة ، من الحيوانات والنباتات ، والمعادن والجمادات ، على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وخواصها ومنافعها ﴿إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يذَّكرون﴾ أي لعبرةً لقومٍ يتعظون ﴿وهو الذي سخَّر البحر﴾ أي وهو تعالى ـ بقدرته ورحمته ـ ذلَّل لكم البحر المتلاطم الأمواج للركوب فيه والغوص في أعماقه ﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ أي لتأكلوا من البحر السمك الطريَّ الذي تصطادونه ﴿وتستخرجوا منه حليةً تلبسونها﴾ أي وتستخرجوا منه الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان ﴿وترى الفُلك مواخر فيه﴾ أي وترى السفن العظيمة تشق عُباب البحر جاريةً فيه وهي تحمل الأمتعة والأقوات ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي سخر لكم البحر لتنتفعوا بما ذُكر ولتطلبوا من فضل الله ورزقه سبل معايشكم بالتجارة ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولتشكروا ربكم على عظيم إنعامه وجليل إفضاله ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ أي نصب فيها جبالاً ثوابت راسيات لئلا تضطرب بكم وتميل قال أبو السعود : إن الأرض كانت كرةً خفيفة قبل أن تُخلق فيها الجبال ، وكان من حقها أن تتحرك كالأفلاك بأدنى سبب فلما خُلقت الجبال توجهت بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد لها[2] ﴿وأنهاراً وسُبُلاً لعلكم تهتدون﴾ أي وجعل فيها أنهاراً وطرقاً

(١) البحر ٥/ ٤٧٩ . (٢) أبو السعود ٣/ ١٦٧ .

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ

ومسالك لكي تهتدوا إلى مقاصدكم ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ أي وعلامات يستدلون بها على الطرق كالجبال والأنهار، وبالنجوم يهتدون ليلاً في البراري والبحار قال ابن عباس: العلامات معالمُ الطرق بالنهار وبالنجم هم يهتدون بالليل[1] ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ الاستفهام إنكاري أي أتسوّون بين الخالق لتلك الأشياء العظيمة والنعم الجليلة، وبين من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره؟ أتشركون هذا الصنم الحقير مع الخالق الجليل؟ وهو تبكيت للكفرة وإبطالٌ لعبادتهم الأصنام ﴿أفلا تذكّرون﴾ أي أفلا تتذكرون فتعرفون خطأ ما أنتم فيه من عبادة غير الله؟ وهو توبيخٌ آخر ﴿وإن تعدُّوا نعمة الله لا تُحصوها﴾ أي إن تعدوا نعم الله الفائضة عليكم لا تضبطوا عددها فضلاً عن أن تطيقوا شكرها ﴿إن الله لغفورٌ رحيم﴾ أي غفور لما صدر منكم من تقصير رحيم بالعباد حيث ينعم عليهم مع تقصيرهم وعصيانهم ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ أي يعلم ما تخفونه وما تظهرونه من النوايا والأعمال وسيجازيكم عليها ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله كالأوثان والأصنام لا يقدرون على خلق شيء أصلاً والحال أنهم مخلوقون صنعهم البشر بأيديهم، فكيف يكونون آلهة تعبد من دون الله؟ ﴿أمواتٌ غير أحياء﴾ أي وتلك الأصنام أمواتٌ لا أرواح فيها، لا تسمع ولا تبصر لأنها جمادات لا حياة فيها، فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها لما فيكم من الحياة؟ ﴿وما يشعرون أيّان يبعثون﴾ أي ما تشعر هذه الأصنام متى يبعث عابدوها، وفيه تهكم بالمشركين لأنهم عبدوا جماداً لا يحس ولا يشعر ﴿إلهكم إله واحدٌ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إله واحدٌ لا شريك له ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾ أي فالذين لا يصدّقون بالبعث والجزاء قلوبهم تنكر وحدانية الله عز وجل ﴿وهم مستكبرون﴾ أي متكبرون متعظمون عن قبول الحق بعدما سطعت دلائله ﴿لا جرم أنَّ اللهَ يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي حقاً إن الله تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالهم يعلم ما يخفون وما يظهرون ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ أي المتكبرين عن التوحيد والإيمان ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم﴾ أي وإذا سئل هؤلاء الجاحدون أيُّ شيء أنزل ربكم على رسوله ﷺ؟ ﴿قالوا أساطير الأولين﴾ أي قالوا على سبيل الاستهزاء: ما أنزله

(١) زاد المسير ٤/ ٤٣٦.

﴿كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ليس إلا خرافات وأباطيل الأمم السابقين ليس بكلام رب العالمين قال المفسرون : كان المشركون يجلسون على مداخل مكة يُنفِّرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحاج ماذا أُنزل على محمد ؟ قالوا أباطيل وأحاديث الأولين[1] ﴿ليحملوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة﴾ أي قالوا ذلك البهتان ليحملوا ذنوبهم كاملةً من غير أن يُكفَّر منها شيء ﴿ومن أوزار الذين يُضلونهم بغير علم﴾ أي وليحملوا ذنوب الأتباع الذين أضلوهم بغير دليلٍ أو برهان ، فقد كانوا رؤساء يُقتدى بهم في الضلالة ولذلك حملوا أوزارهم وأوزار من أضلوهم ﴿ألاَ ساء ما يزرون﴾ ألاَ للتنبيه أي فانتبهوا أيها القوم بئس الحمل الذي حملوه على ظهورهم ، والمقصودُ المبالغة في الزجر ﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ أي مكر المجرمون بأنبيائهم وأرادوا إطفاء نور الله من قبل كفار مكة ، وهذا تسلية له ﷺ ﴿فأتى اللهُ بنيانهم من القواعد﴾ أي قلع بنيانهم من قواعده وأسسه ، وهذا تمثيلٌ لإفساد ما أبرموه من المكر بالرسل ﴿فخرَّ عليهم السقفُ من فوقهم﴾ أي فسقط عليهم سقف بنيانهم فتهدّم البناء وماتوا ﴿وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ أي جاءهم الهلاك والدمار من حيث لا يخطر على بالهم ، والآية مشهد كاملٌ للدمار والهلاك ، وللسخرية من مكر الماكرين ، وتدبير المدبرين ، الذين يقفون لدعوة الله ويحسبون مكرهم لا يُردّ ، وتدبيرهم لا يخيب ، والله من ورائهم محيط ﴿ثم يوم القيامة يخزيهم﴾ أي يفضحهم بالعذاب ويذلهم ويهينهم ﴿ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم﴾ أي يقول تعالى لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : أين هؤلاء الشركاء الذين كنتم تخاصمون وتعادون من أجلهم الأنبياء ؟ أحضروهم ليشفعوا لكم ، والأسلوب استهزاءٌ وتهكم ﴿قال الذينَ أُوتوا العلمَ إنَّ الخزي اليوم والسوءَ على الكافرين﴾ أي يقول الدعاة والعلماء شماتةً بأولئك الأشقياء إن الذلَّ والهوان والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله ﴿الذين تتوفاهم الملائكةُ ظالمي أنفسهم﴾ أي تقبض الملائكة أرواحهم الخبيثة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر والإشراك بالله ﴿فألقوا السَّلَم ما كنا نعمل من سوء﴾ أي استسلموا وانقادوا عند الموت على خلاف عادتهم في الدنيا من العناد والمكابرة ، وقالوا ما أشركنا ولا عصينا كما يقولون يوم المعاد ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ ﴿بلى إنَّ الله عليم بما كنتم تعملون﴾ أي يكذبهم الله ويقول : بلى قد كذبتم وعصيتم

(١) البحر ٥/ ٤٨٤ .

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

وكنتم مجرمين ﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها﴾ أي أدخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً ﴿فلبئس مثوى المتكبرين﴾ أي بئست جهنم مقراً ومقاماً للمتكبرين عن طاعة الله .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الالتفات في ﴿فاتقون﴾ فهو خطاب للمستعجلين بطريق الالتفات .

٢ ـ أسلوب الإطناب في ﴿أموات غير أحياء﴾ تأكيداً لسفاهة من عبد الأصنام ومثله ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون﴾ .

٣ ـ الطباق بين ﴿يسرون ويعلنون﴾ وبين ﴿تريحون وتسرحون﴾ .

٤ ـ صيغة المبالغة في ﴿خصيمٌ مبين﴾ وفي ﴿غفور رحيم﴾ .

٥ ـ طباق السلب في ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ .

٦ ـ الجناس الناقص في ﴿لا يخلقون . . وهم يُخلقون﴾ .

٧ ـ الاستعارة التمثيلية في ﴿قد مكر الذين من قبلهم . . فخرَّ عليهم السقف من فوقهم﴾ شبهت حال أولئك الماكرين بحال قومٍ بنوا بنياناً شديد الدعائم فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فأهلكهم بطريق الاستعارة التمثيلية ، ووجه الشبه أن ما عدوه سبباً لبقائهم ، عاد سبباً لفنائهم كقولهم « من حفر حفرة لأخيه سقط فيها » .

فَـائِـدَة : قال القرطبي : تسمى سورة النحل سورة النِّعم لكثرة ما عدَّد الله فيها من نعمه على عباده[1] .

* * *

قال الله تعالى :﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم . . إلى . . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ من آية (٣٠) إلى نهاية آية (٥٠) .

المُنَـاسَـبَة : لما أخبر تعالى عن حال الأشقياء الذين كفروا نعمة الله ، وطعنوا في القرآن فزعموا أنه أساطير الأولين ، وبيَّن ما يكونون عليه في الآخرة من الفضيحة والذل والهوان ، ذكر هنا ما أعده للمتقين من وجوه التكريم في دار النعيم ، ليظهر الفارق بين حال أهل السعادة وحال أهل الشقاوة ، وبين الأبرار .

(١) القرطبي ٣٦/١٠

والفجار على طريقة القرآن في المقارنة بين الفريقين .

اللغــة : ﴿الزُّبُر﴾ الكتب السماوية جمع زبُور من زبرت الكتاب إذا كتبته ﴿يخسف﴾ خسفَ المكانُ خسوفاً إذا ذهب وغاب في الأرض ﴿يتفيأ﴾ يميل من جانب إلى جانب ومنه قيل للظل فيءٌ لأنه يفيء أي يرجع من جهة إلى أخرى ﴿داخرون﴾ صاغرون ذليلون ، والدخور الصغار والذل قال ذو الرمّة :

فلم يبْقَ إلا داخِرٌ في مُخيَّس ... ومنجَحِرٌ في غيرِ أرضكَ في جُحْرٌ[1]

* ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ۙ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن﴾

التفسيـر : ﴿وقيل للذين اتقوا﴾ أي قيل للفريق الثاني وهم أهل التقوى والإِيمان ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ أي ماذا أنزل ربكم على رسوله ؟ قالوا أنزل خيراً قال المفسرون : هذا كان في أيام الموسم يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره فيقولون : إنه ساحر وكاهن وكذاب ، فيأتي المؤمنين ويسألهم عن محمد وعن ما أنزل الله عليه فيقولون : أنزل الله عليه الخير والهدى والقرآن[2] ، قال تعالى بياناً لجزائهم الكريم ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي لهؤلاء المحسنين مكافأة في الدنيا بإحسانهم ﴿ولدار الآخرة خير﴾ أي وما ينالونه في الآخرة من ثواب الجنة خيرٌ وأعظم من دار الدنيا لفنائها وبقاء الآخرة ﴿ولنِعم دار المتقين﴾ أي ولنعم دار المتقين دار الآخرة وهي ﴿جناتُ عدن﴾ أي جناتُ إقامة ﴿يدخلونها تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يدخلون تلك الجنان التي تجري من بين أشجارها وقصورها الأنهار ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ أي لهم في تلك الجنات ما يشتهون بدون كدٍّ ولا تعب ، ولا انقطاعٍ ولا نَصب ﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾ أي مثل هذا الجزاء الكريم يجزي الله عباده المتقين لمحارمه ، المتمسكين بأوامره ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾ أي هم الذين تقبض الملائكةُ أرواحهم حال كونهم أبراراً ، قد تطهروا من دنس الشرك والمعاصي ، طيبةً نفوسهم بلقاء الله ﴿يقولون سلامٌ عليكم﴾ أي تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة قال ابن عباس : الملائكة يأتونهم بالسلام من قِبَل الله ، ويخبرونهم أنهم من أصحاب اليمين[3] ﴿أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ أي هنيئاً لكم الجنة بما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكةُ أو يأتي أمرُ ربك﴾ عاد الكلام إلى تقريع المشركين وتوبيخهم على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا والمعنى ما ينتظر

(١) الطبري ١٤/١١٦ . (٢) الرازي ٢٠/٢٣ . (٣) الطبري ١٤/١٠١ .

كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ

هؤلاء إلا أحد أمرين : إما نزول الموت بهم ، أو حلول العذاب العاجل ، أو ليس في مصير المكذبين قبلهم عبرةٌ وغناء ؟ ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ أي كذلك صنع من قبلهم من المجرمين حتى حلَّ بهم العذاب ﴿وما ظلمهم اللهُ ولكنْ كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي ما ظلمهم الله بتعذيبهم وإهلاكهم ولكنْ ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي ﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾ أي أصابهم عقوبات كفرهم وجزاء أعمالهم الخبيثة ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي أحاط ونزل بهم جزاء استهزائهم وهو العذاب الأليم في دركات الجحيم ﴿وقال الذين أشركوا﴾ أي قال أهل الكفر والإشراك وهم كفار قريش ﴿لو شاء اللهُ ما عبدنا من دونه من شيءٍ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ أي لو شاء الله ما عبدنا الأصنام لا نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا ما حرمنا من البحائر والسوائب وغيرها ، قالوا هذا على سبيل الاستهزاء لا على سبيل الاعتقاد ، وغرضُهم أن إشراكهم وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة واقع بمشيئة الله ، فهو راضٍ به وهو حقٌّ وصواب[1] ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ أي مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من قبلهم من المجرمين ، واحتجوا مثل احتجاجهم الباطل ، وتناسوا كسبهم لكفرهم ومعاصيهم ، وأن كل ذلك كان بمحض اختيارهم بعد أن أنذرتهم رسلهم عذاب النار وغضب الجبار ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي ليس على الرسل إلا التبليغ ، وأمَّا أمر الهداية والإيمان فهو إلى الله جلَّ وعلا ﴿ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ أي أرسلنا الرسل إلى جميع الخلق بأن اعبدوا الله ووحّدوه ، واتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم ، وكل من دعا إلى الضلال ﴿فمنهم من هدى اللهُ﴾ أي فمنهم من أرشده الله إلى عبادته ودينه فآمن ﴿ومنهم من حقَّت عليه الضلالة﴾ أي ومنهم من وجبت له الشقاوة والضلالة فكفر ، أعْلَمَ تعالى انه أرسل الرسل لتبليغ الناس دعوة الله فمنهم من استجاب فهداه الله ، ومنهم من كفر فأضلَّه الله ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة

(١) قال في الظلال « وهذه مقولةٌ جديدة من مقولات المشركين في علة إشراكهم بالله ، فقد أحالوا اشراكهم وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة ، على إرادة الله ومشيئته ، فلو شاء الله ـ في زعمهم ـ ألاّ يفعلوا شيئاً من هذا لمنعهم من فعله .. وهذا وهمٌ وخطأٌ في فهم معنى المشيئة الإلهية ، فالله سبحانه لا يريد لعباده الشرك ، ولا يرضى لهم أن يحرموا ما أحله لهم من الطيبات ، وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها في شرائعه على ألسنة الرسل الذين كلفوا بالتبليغ ولهذا قال تعالى بعده ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ فهذا أمره ، وهذه إرادته لعباده ، وقد شاءت ارادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى والضلال ، وأن يدع لهم مشيئة الاختيار »
١ ـ هـ ظلال القرآن ١٤/ ٦١ .

﴿عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

المكذبين﴾ أي سيروا يا معشر قريش في أكناف الأرض ثم انظروا ماذا حلَّ بالأمم المكذبين لعلكم تعتبرون ! ﴿إن تحْرص على هداهم فإنَّ الله لا يهدي من يُضلُّ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أي إن تحرص يا محمد على هداية هؤلاء الكفار فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره ﴿وماهم من ناصرين﴾ أي ليس لهم من ينقذهم من عذابه تعالى ﴿وأقسموا بالله جهْد أيمانهم لا يبعث اللهُ من يموتُ﴾ أي حلف المشركون جاهدين في أيمانهم مبالغين في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت ، استبعدوا البعث ورأوه أمراً عسيراً بعد البلى وتفرق الأشلاء والذرات ، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿بلى وعداً عليه حقاً﴾ أي بلى ليبعثنَّهم ، وعد بذلك وعداً قاطعاً لا بدَّ منه ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث والنشور ﴿ليُبيِّن لهم الذي يختلفون فيه﴾ أي سيبعثهم ليكشف ضلالهم في إنكارهم البعث ، وليظهر لهم الحق فيما اختلفوا فيه ، وليحقق العدل وهو التمييز بين المطيع والعاصي ، وبين المحق والمبطل ، وبين الظالم والمظلوم ﴿وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ أي وليعلم الجاحدون للبعث ، والمكذبون لوعد الله الحق أنهم كانوا كاذبين فيما يقولون ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن تقول له كنْ فيكون﴾ أي لا يحتاج الأمر إلى كبير جهد وعناء فإنا نقول للشيء كنْ فيكون قال المفسرون : هذا تقريبٌ للأذهان، والحقيقةُ أنه تعالى لو أراد شيئاً لكان بغير احتياج إلى لفظ ﴿كن﴾ ﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظُلموا﴾ أي تركوا الأوطان والأهل والقرابة في شأن الله وابتغاء رضوانه من بعد ما عُذّبوا في الله قال القرطبي : هم صهيب وبلال وخبّاب وعمّار ، عذّبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا ، فلما خلّوهم هاجروا إلى المدينة[1] ﴿لنبوئنهم في الدنيا حسنةً﴾ أي لنسكننهم داراً حسنة خيراً مما فقدوا قال ابن عباس : بوأهم الله المدينة فجعلها لهم دار هجرة ﴿ولأجرُ الآخرة أكبرُ لو كانوا يعلمون﴾ أي ثواب الآخرة أعظم وأشرف وأكبر لو كان الناس يعلمون ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي هم الذين صبروا على الشدائد والمكاره ، فهجروا الأوطان ، وفارقوا الإخوان ، واعتمدوا على الله وحده يبتغون أجره

(١) القرطبي ١٠/١٠٧

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

ومثوبته ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحي إليهم﴾ أي وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى الأمم الماضية إلا بشراً نوحي إليهم كما أوحينا إليك قال المفسرون : أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فهلاً بعث إلينا ملكاً فنزلت[١] ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ أي اسألوا يا معشر قريش العلماء بالتوراة والإنجيل يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً إن كنتمٰ لا تعلمون ذلك ﴿بالبيّنات والزبر﴾ أي أرسلناهم بالحجج والبراهين الساطعة الدالة على صدقهم وبالزبُر أي الكتب المقدسة ﴿وأنزلنا إليك الذكر﴾ أي القرآن المذكّر الموقظ للقلوب الغافلة ﴿لتبيّنَ للناس ما نُزّل إليهم﴾ أي لتعرّف الناس الأحكام ، والحلال والحرام ﴿ولعلّهم يتفكرون﴾ أي ولعلهم يتفكرون في هذا القرآن فيتعظون ﴿أفأمنَ الذين مكروا السيئاتِ أن يخسف اللهُ بهم الأرض﴾ أي هل أمن هؤلاء الكفار الذين مكروا برسول الله ﷺ واحتالوا لقتله في دار الندوة ، هل أمنوا أن يخسفَ الله بهم الأرض كما فعل بقارون ؟ ﴿أو يأتيهم العذابُ من حيثُ لا يشعرون﴾ أي يأتيهم العذاب بغتةً في حال أمنهم واستقرارهم ، من حيث لا يخطر ببالهم ومن جهةٍ لا يعلمون بها ﴿أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين﴾ أي يهلكهم في أثناء أسفارهم للتجارة واشتغالهم بالبيع والشراء فإنهم على أي حال لا يعجزون الله ﴿أو يأخذهم على تخوّفٍ﴾ أي يهلكهم الله حال كونهم خائفين مترقبين لنزول العذاب قال ابن كثير : فإنه يكون أبلغ وأشد فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديدٌ[٢] ﴿فإنَّ ربكم لرءوفٌ رحيم﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾ أي أولم يعتبر هؤلاء الكافرون ويروا آثار قدرة الله وأنه ما من شيء من الجبال والأشجار والأحجار ومن سائر ما خلق الله ﴿يتفيؤا ظلالُه عن اليمين والشمائل سُجَّداً لله﴾ أي تميل ظلالها من جانب إلى جانب ساجدة للّهِ سجود خضوعٍ لمشيئته تعالى وانقياد ، لا تخرج عن إرادته ومشيئته ﴿وهم داخرون﴾ أي خاضعون صاغرون فكل هذه الأشياء منقادة لقدرة الله وتدبيره فكيف يتعالى ويتكبر على طاعته أولئك الكافرون ؟ ﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون﴾ أي

(١) زاد المسير ٤/ ٤٤٩ . (٢) المختصر ٢/ ٣٣٣ .

﴿مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝﴾

له تعالى وحده يخضع وينقاد جميع المخلوقات بما فيهم الملائكة فهم لا يستكبرون عن عبادته ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي يخافون جلال الله وعظمته ، ويمتثلون أوامره على الدوام .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الإيجاز بالحذف ﴿قالوا خيراً﴾ أي قالوا أنزل خيراً .

٢ ـ الإطناب في قوله ﴿ما عبدنا من دونه من شيء . . ولاحرمنا من دونه من شيء﴾ .

٣ ـ الطباق في ﴿هَدى الله . . وحقَّتْ عليه الضلالةُ﴾ وفي ﴿لا يهدي منْ يُضل﴾ وفي ﴿اليمين والشمائل﴾ .

٤ ـ صيغة المبالغة في ﴿لرءوفٌ رحيم﴾ لأن فعول وفعيل من صيغ المبالغة .

٥ ـ ذكر الخاص بعد العام في ﴿يسجد ما في السموات وما في الأرض . . والملائكةُ﴾ زيادةً في التعظيم والتكريم للملائكة الأطهار .

٦ ـ السجع في ﴿يتفكرون ، داخرون ، يشعرون﴾ .

فَائِدَة : استنبط بعض العلماء من قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ أن النبوة لا تكون إلا في الرجال ، وأما النساء فليس فيهن نبيَّة ، وهو استنباط دقيق .

تَنْبِيه : قال ابن تيمية في منهاج السنة : « والاحتجاج بالقدر حجةٌ باطلة داحضة ، باتفاق كل ذي عقلٍ ودين من جميع العالمين ، ولهذا لما قال المشركون ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ ردَّ الله عليهم بقوله﴿قل هل عندكم من علمٍ فتخرجوه لنا إن تتَّبعون إلا الظنَّ وإن أنتم إلا تخرصون﴾والمشركون يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة باطلة ، فإنَّ أحدهم لو ظلم الآخر ، أو أراد قتل ولده ، أو الزنى بزوجته ، أو كان مصراً على الظلم فنهاه الناس عن ذلك فقال : لو شاء الله لم أفعل هذا ، لم يقبلوا منه هذه الحجة ولا يقبلها هو من غيره ، وإنما يحتج بها المحتج دفعاً للّوم عن نفسه بلا وجه . . » [١] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقال الله لا تتخذوا إلٰهين . . إلى . . إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ من آية (٥١) إلى نهاية آية (٧٤) .

---

(١) عن محاسن التأويل الجزء العاشر بإيجاز .

المناسبة : لما ذكر تعالى أن كل ما في الكون منقادٌ لأمر الله ، خاضعٌ لسلطانه ، أمر هنا بإفراده بالعبادة لأنه الخالق الرازق ، ثم ضرب الأمثال في ضلالات أهل الجاهلية ، وذكّر الناس بنعمه الجليلة ليعبدوه ويشكروه .

اللغة : ﴿واصباً﴾ دائماً ولازماً قال الجوهري : وصبَ الشيء وصوباً أي دام ومنه ﴿ولهم عذابٌ واصب﴾ أي دائم وقال الشاعر : « وهزيمٌ رعده واصب »[1] ﴿تجأرون﴾ الجؤار : رفع الصوت بالدعاء والتضرع يقال : جأر أي صاح قال الأعشى يصف بقرة :

فطافت ثلاثاً بينَ يومٍ وليلةٍ وكانَ النكيرُ أن تُطيف وتجْأرا[2]

﴿كظيم﴾ ممتلىء غماً وغيظاً ، والكظم أن يطبق الفم فلا يتكلم من الغيظ ﴿يتوارى﴾ يختفي ﴿هُون﴾ هَوانٍ وذُل ﴿فرث﴾ الفرْثُ : الزبل الذي ينزل إلى الكَرِش أو المِعَى ﴿سائغاً﴾ لذيذاً هيناً لا يغصُّ به من شربه ﴿ذُللاً﴾ جمع ذلول وهو المنقاد المسخَّر بلا عناء ﴿حفدة﴾ الحفدة : قال الأزهري أولاد الأولاد ، والحفدة : الخدم والأعوان .

* وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَـٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ

التفسير : ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ أي لا تعبدوا إلهين فإن الإله الحق لا يتعدد ﴿إنما هو إله واحد﴾ أي إلهكم واحد أحد فردٌ صمد ﴿فإياي فارهبون﴾ أي خافون دون سواي ﴿وله ما في السموات والأرض﴾ أي ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿وله الدين واصباً﴾ أي له الطاعة والانقياد واجباً ثابتاً فهو الإله الحق ، وله الطاعة خالصة ﴿أفغير اللهِ تتقون﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي كيف تتقون وتخافون غيره ، ولا نفع ولا ضر إلا بيده ؟ ﴿وما بكم من نعمةٍ فمن الله﴾ أي ما تفضّل عليكم أيها الناس من رزقٍ ونعمةٍ وعافيةٍ ونصر فمن فضلِ اللهِ وإحسانه ﴿ثم إذا مسكم الضُّرُّ فإليه تجْأرون﴾ أي ثم إذا أصابكم الضُّرُّ من فقرٍ ومرضٍ وبأساء فإليه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء،والغرض أنكم تلجأون إليه وحده ساعة العسرة والضيق ، ولا تتوجهون إلا إليه دون الشركاء ﴿ثم إذا كشف الضُّرَّ عنكم إذا فريقٌ منكم بربهم يشركون﴾ أي إذا رفع عنكم البلاء رجع فريق منكم إلى الإشراك بالله قال القرطبي : ومعنى الكلام التعجيبُ من الإشراك بعد النجاة من الهلاك[3] ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ أي ليجحدوا نعمته تعالى من كشف الضر والبلاء ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ أي تمتعوا بدار الفناء فسوف تعلمون عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب ، وهو أمرٌ

(١) البيت لحسان والهزيم : السحاب المتشقق بالمطر كذا في الطبري ١١٨/١٤ . (٢) القرطبي ١١٥/١٠ . (٣) القرطبي ١١٥/١٠ .

﴿تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾

للتهديد والوعيد ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم﴾ أي يجعلون للأصنام التي لا يعلمون ربوبيتها ببرهان ولا بحجة[1] نصيباً من الزرع والأنعام تقرباً إليها ﴿تالله لتُسألُنَّ عما كنتم تفترون﴾ أي والله أيها المشركون لتُسألنَّ عما كنتم تختلقونه من الكذب على الله ، والمراد سؤال توبيخ وتقريع ﴿ويجعلون لله البنات﴾ أي ومن جهل هؤلاء المشركين وسفاهتهم أن جعلوا الملائكة بنات الله ، فنسبوا إلى الله البنات وجعلوا لهم البنين ﴿سبحانه﴾ أي تنزَّه الله وتعظَّم عن هذا الإفك والبهتان ﴿ولهم ما يشتهون﴾ أي ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين مع كراهتهم أنهم يأنفون من البنات ﴿وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى﴾ أي إذا أُخبر أحدهم بولادة بنت ﴿ظلَّ وجهه مسوداً﴾ أي صار وجهه متغيراً من الغم والحزن قال القرطبي : وهو كناية عن الغم والحزن وليس يريد السواد ، والعربُ تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسودَّ وجهه[2] ﴿وهو كظيم﴾ أي مملوءٌ غيظاً وغماً ﴿يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به﴾ أي يختفي من قومه خوفاً من العار الذي يلحقه بسبب البنت ، كأنها بليَّة وليست هبةً إلهية ، ثم يفكر فيما يصنع ﴿أيمسكه على هُونٍ أم يدسُّه في التراب﴾ أي أيمسك هذه الأنثى على ذلٍ وهوان أم يدفنها في التراب حية ؟ ﴿ألا ساءَ ما يحكمون﴾ أي ساء صنيعهم وساء حكمهم ، حيث نسبوا لخالقهم البنات ـ وهي عندهم بتلك الدرجة من الذل والحقارة ـ وأضافوا البنين إليهم ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثلُ السوء﴾ أي لهؤلاء الذين لم يصدّقوا بالآخرة ونسبوا للّهِ البنات سفهاً وجهلاً ، صفةُ السوء القبيحة التي هي كالمثل في القبح ، فالنقصُ إنما ينسب إليهم لا إلى الله ﴿ولله المثلُ الأعلى﴾ أي له جل وعلا الوصف العالي الشأن ، والكمال المطلق ، والتنزه عن صفات المخلوقين ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي العزيزُ في ملكه ، الحكيمُ في تدبيره ثم أخبر تعالى عن حلمه بالعباد مع ظلمهم فقال ﴿ولو يؤاخذُ الله الناس بظلمهم﴾ أي لو يؤاخذهم بكفرهم ومعاصيهم ويعاجلهم بالعقوبة ﴿ما ترك عليها من دابة﴾ أي ما ترك على الأرض أحداً يدبُّ على ظهرها من إنسانٍ وحيوان ﴿ولكنْ يؤخرهم إلى أجلٍ مسمًّى﴾ أي ولكنْ يؤخرهم إلى وقتٍ معيَّن تقتضيه الحكمة ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون﴾ أي فإذا جاء الوقت المحدَّد

(١) وقيل المعنى يجعلون لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جماد نصيباً مما أعطاهم الله . (٢) القرطبي ١٠/١١٦ .

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ﴾

لهلاكهم لا يتأخرون برهةً يسيرةً من الزمن ولا يتقدمون عليها كقوله ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ ﴿ويجعلون للّه ما يكرهون﴾ أي يجعلون له تعالى البنات مع كراهتهم لهنَّ ، وهو تأكيد لما سبق للتقريع والتوبيخ ﴿وتصفُ ألسنتهم الكذبَ أنَّ لهم الحُسْنى﴾ أي يجعلون لله ما يجعلون ومع ذلك يزعمون أنَّ لهم العاقبة الحسنى عند الله وأنهم أهل الجنة ﴿لا جَرم أنَّ لهم النار﴾ أي حقاً إنَّ لهم مكان ما أملّوا نار جهنم التي ليس وراء عذابها عذاب ﴿وأنَّهم مفرَطون﴾ أي معجَّلون إليها ومُقدَّمون[١] ، ثم ذكر تعالى نعمته في إرسال الرسل ليتأسى صلوات الله عليه بهم في الصبر على تحمل الأذى فقال ﴿تاللّهِ لقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلِك فزيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم﴾ أي والله لقد بعثنا قبلك يا محمد رسلاً إلى أقوامهم فحسَّن الشيطان أعمالهم القبيحة حتى كذبوا الرسل وردّوا عليهم ما جاءوهم به من البينات ﴿فهو وليُّهم اليوم﴾ أي فالشيطان ناصرهم اليوم في الدنيا وبئس الناصر ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب مؤلم ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبيِّن لهم الذي اختلفوا فيه﴾ أي ما أنزلنا عليك القرآن يا محمد إلا لتبيِّن للناس ما اختلفوا فيه من الدين والأحكام لتقوم الحجة عليهم ﴿وهدى ورحمةً لقومٍ يؤمنون﴾ أي وأنزلنا القرآن هدايةً للقلوب ، ورحمة وشفاءً لمن آمن به ، ثم ذكر تعالى عظيم قدرته الدالة على وحدانيته فقال ﴿واللهُ أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ أي أنزل بقدرته الماء من السحاب فأحيا بذلك الماء النبات والزرع بعد جدب الأرض ويُبسها ﴿إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يسمعون﴾ أي إن في هذا الإحياء لدلالةً باهرة على عظيم قدرته لقوم يسمعون التذكير فيتدبرونه ويعقلونه ﴿وإنَّ لكم في الأنعام لعبرة﴾ أي وإنَّ لكم أيها الناس في هذه الأنعام « الإبل والبقر والضأن والمعز » لعظةً وعبرة يعتبر بها العقلاء ، ففي خلقها وتسخيرها دلالة على قدرة الله وعظمته ووحدانيته ﴿نُسقيكم ممَّا في بطونه﴾ أي نسقيكم من بعض الذي في بطون هذه الأنعام ﴿من بين فَرْثٍ ودمٍ لبَناً خالصاً﴾ أي من بين الروث والدم ذلك الحليب الخالص واللبن النافع[٢]

---

(١) هذا قول قتادة والحسن من الفرط وهو السابق إلى طلب الماء . وقال مجاهد : « مُفْرطون » متركون منسيُّون في النار .

(٢) قال الزمخشري : والآية بيانٌ للعبرة فإن الله سبحانه يخلق اللبن وسطاً بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلونٍ ، ولا طعم ، ولا رائحة ، فسبحانَ الله ما أعظم قدرته ، وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل . الكشاف ٢/ ٦١٥ .

﴿مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

﴿سائغاً للشاربين﴾ أي سهل المرور في حلقهم ، لذيذاً هنيئاً لا يغصُّ به من شربه **﴿ومن ثمراتِ النخيل والأعنابِ تتخذون منه سكراً﴾** أي ولكم مما أنعم الله به عليكم من ثمراتِ النخيل والأعناب ما تجعلون منه خمراً يسكر قال الطبري : وإنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ثم حُرِّمتْ بعد[1] **﴿ورزقاً حسناً﴾** كالتمر والزبيب قال ابن عباس : الرزق الحسن : ما أُحلَّ من ثمرتها ، والسُّكر : ما حُرِّم من ثمرتها . **﴿إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يعقلون﴾** أي لآيةً باهرة ، ودلالة قاهرة على وحدانيته سبحانه لقومٍ يتدبرون بعقولهم قال ابن كثير : وناسب ذكرُ العقل هنا لأنه أشرفُ ما في الإنسان ، ولهذا حرَّم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانةً لعقولها[2] ، ولما ذكر تعالى ما يدل على باهر قدرته ، وعظيم حكمته من إخراج اللبن من بين فرثٍ ودمٍ ، وإخراج الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، ذكر إخراج العسل الذي جعله شفاءً للناس من النحل ، وهي حشرةٌ ضعيفة وفيها عجائب بديعة وأمور غريبة ، وكل هذا يدل على وحدانية الصانع وقدرته وعظمته فقال تعالى **﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾** المراد من الوحي : الإلهامُ والهدايةُ أي ألهمها مصالحها وأرشدها إلى بناء بيوتها المسدَّسة العجيبة تأوي إليها في ثلاثة أمكنة : الجبال ، والشجر ، والأكوار التي يبنيها الناس **﴿ثم كلي من كلِّ الثمرات﴾** أي كلي من كل الأزهار والثمار التي تشتهينها من الحلو ، والمر ، والحامض ، فإن الله بقدرته يحيلها إلى عسلٍ **﴿فاسلكي سُبُل ربك ذُللاً﴾** أي أدخلي الطرق في طلب المرعى حال كونها مسخرةً لك لا تضلين في الذهاب أو الإياب **﴿يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناس﴾** أي يخرج من بطون النحل عسلٌ متنوعٌ منه أحمر ، وأبيض ، وأصفر ، فيه شفاءٌ للناس من كثيرٍ من الأمراض قال الرازي فإن قالوا : كيف يكون شفاءً للناس وهو يضر بالصفراء ؟ فالجواب أنه تعالى لم يقل : إنه شفاءٌ لكل الناس ، ولكل داء ، وفي كل حال ، بل لمّا كان شفاء للبعض ومن بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأنَّ فيه شفاء[3] **﴿إنَّ في ذلك لآية لقومٍ يتفكرون﴾** أي لعبرة لقومٍ يتفكرون في عظيم قدرة الله ، وبديع صنعه **﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم﴾** أي خلقكم بقدرته بعد أن لم تكونوا شيئاً ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم **﴿ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العُمُر﴾** أي يُردُّ إلى أردء وأضعف العمر وهو الهَرم والخرف **﴿لكي لا يعلم بعد علمٍ شيئاً﴾** أي لينسى ما يعلم فيشبه الطفل في نقصان القوة والعقل **﴿إنَّ الله عليم قدير﴾** أي عليمٌ بتدبير خلقه ،

(١) الطبري ١٤/ ١٣٤ . (٢) التفسير الكبير ٢٠/ ٧٢ . (٣) المختصر ٢/ ٣٣٦ .

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

قديرٌ على ما يريده ، فكما قدر على نقل الإنسان من العلم إلى الجهل ، فإنه قادر على إحيائه بعد إماتته قال عكرمة : من قرأ القرآن لم يُردَّ إلى أرذل العمر[1] ﴿والله فضَّل بعضكم على بعض في الرزق﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق فهذا غنيٌّ وذاك فقير ، وهذا مالكٌ وذاك مملوك ﴿فما الذين فُضِّلوا برادّي رزقهم على ما ملكتْ أيمانهم فهم فيه سواء﴾ أي ليس هؤلاء الأغنياء بمشركين لعبيدهم المماليك فيما رزقهم الله من الأموال حتى يستووا في ذلك مع عبيدهم ، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمشركين قال ابن عباس : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني[2] ؟ ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ الاستفهام للإنكار أي أيشركون معه غيره وهو المنعم المتفضل عليهم ؟ ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي هو تعالى بقدرته خلق النساء من جنسكم وشكلكم ليحصل الائتلاف والمودة والرحمة بينكم ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفَدة﴾ أي جعل لكم من هؤلاء الزوجات الأولاد وأولاد الأولاد ، سمّوا حفدة لأنهم يخدمون أجدادهم ويسارعون في طاعتهم ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي رزقكم من أنواع اللذائذ من الثمار والحبوب والحيوان ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾ أي أبعد تحقق ما ذُكر من نعم الله يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن ؟ وهو استفهام للتوبيخ والتقريع ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً﴾ أي ويعبد هؤلاء المشركون أوثاناً لا تقدر على إنزال مطر ، ولا على إخراج زرعٍ أو شجر ، ولا تقدر أن ترزقهم قليلاً أو كثيراً ﴿ولا يستطيعون﴾ أي ليس لها ذلك ولا تقدر عليه لو أرادت ﴿فلا تضربوا للّهِ الأمثال﴾ أي لا تمثّلوا لله الأمثال ، ولا تشبّهوا له الأشباه ، فإنه تعالى لا مثل له ولا نظير ولا شبيه ﴿إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي يعلم كل الحقائق ، وأنتم لا تعلمون قدر عظمة الخالق .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة من صنوف البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الالتفات من التكلم إلى الغيبة من الغيبة الى المتكلم ﴿فإياي فارهبون﴾ لتربية المهابة والرهبة في القلوب مع إفادة القصر أي لا تخافوا غيري .

(١) زاد المسير ٤/ ٤٦٨ . (٢) المختصر ٢/ ٣٣٨ .

٢ ـ الطباق في ﴿يستقدمون . . ويستأخرون﴾ وفي ﴿أحيا الأرض بعد موتها﴾ وفي ﴿يؤمنون . . ويكفرون﴾ .

٣ ـ الجناس الناقص بين ﴿كلي من كلّ﴾ .

٤ ـ الاعتراض ﴿ويجعلون لله البنات ـ سبحانه ـ ولهم ما يشتهون﴾ فلفظة (سبحانه) معترضة لتعجيب الخلق من هذا الجهل القبيح .

٥ ـ صيغة المبالغة في ﴿العزيز الحكيم﴾ و﴿عليمٌ قدير﴾ .

٦ ـ السجع ﴿يعقلون ،يعرشون، يجحدون ، يكفرون﴾ .

٧ ـ التهديد والوعيد ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ .

٨ ـ قوله تعالى ﴿وتصف ألسنتهم الكذب﴾ قال الشهاب : هذا من بليغ الكلام وبديعه أي ألسنتهم كاذبة كقولهم ﴿عينُها تصفُ السحر﴾ أي ساحرة ، وقدُّها يصف الهيف أي هيفاء .

* * *

قال الله تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً . . إلى . . . يعظكم لعلم تذكرون﴾

من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٩٠)

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى سفاهة المشركين في عبادتهم لغير الله ، أعقبه بذكر مثلين توضيحاً لبطلان عبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تستجيب ولا تسمع ، ثم ذكَّر الناس ببعض النِّعم التي أفاضها عليهم ليعبدوه ويشكروه ، ويُخلصوا له العمل طائعين منيبين .

اللغَة : ﴿أبكم﴾ الأبكم : الأخرس الذي لا ينطق ﴿كَلٌّ﴾ الكَلُّ : الثقيل الذي هو عيال على الغير وقد يسمى اليتيم كلاً لثقله على من يكفله قال الشاعر :

أكولٌ لمالِ الكلِّ قبلَ شبابه إذا كانَ عظْمُ الكلِّ غيرَ شديد[1]

﴿لمح﴾ اللَّمْح : النظر بسرعة مثل الخطفة يقال لَمحه لمحاً ولمحاناً ﴿ظعنكم﴾ الظَّعْنُ : السفر والرحيل لطلب الكلأ ، والظعينةُ المرأة المسافرة ﴿أوبارها﴾ الوبر للإبل كالصوف للغنم ﴿ظلالاً﴾ الظلالُ : كل ما يستظلُّ به من البيوت والشجر ﴿أكناناً﴾ جمع كنّ مثل حِمل وأحمال وهو كل ما يحفظ ويقي من الريح والمطر

(١) البحر المحيط ٥/ ٥١٨ .

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ﴾

وغيرهما ﴿سرابيل﴾ جمع سربال قال الزجاج : كلُّ ما لبسته من قميصٍ أو درعٍ فهو سربال[١] .

التفسير : ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومَنْ رزقناه منا رزقاً حسناً﴾ هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام التي أشركوها مع الله جل وعلا أي مثلُ هؤلاء في إشراكهم مثلُ من سوَّى بين عبدٍ مملوكٍ عاجزٍ عن التصرف ، وبين حرٍّ مالك يتصرف في أمره كيف يشاء ، مع أنهما سيّان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى ، فما الظنُّ بربِّ العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات ؟ ﴿فهو يُنفق منه سراً وجهراً﴾ أي ينفق ماله في الخفاء والعلانية ابتغاء وجه الله ﴿هل يستوون﴾ ؟ أي هل يستوي العبيد والأحرار الذين ضُرب لهم المثل ، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، والله تعالى له المُلك ، وبيده الرزق ، وهو المتصرف في الكون كيف يشاء ، فكيف يُسوَّى بينه وبين الأصنام ؟ ﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي شكراً للّهِ على بيان هذا المثال ووضوح الحق فقد ظهرت الحجة مثل الشمس الساطعة ، ولكنَّ المشركين بسفههم وجهلهم يسوّون بين الخالق والمخلوق ، والمالكِ والمملوك ﴿وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء﴾ هذا هو المثل الثاني للتفريق بين الإله الحق والأصنام الباطلة قال مجاهد : هذا مثلٌ مضروبٌ للوثن والحقِّ تعالى[٢] ، فالوثنُ أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ، ولا يقدر على شيء بالكلية لأنه إما حجرٌ أو شجر ، ﴿وهو كَلٌّ على مولاه﴾ أي ثقيل عالة على وليِّه أو سيده ﴿أينما يوجِّهه لا يأتِ بخير﴾ أي حيثما أرسله سيده لم ينجح في مسعاه لأنه أخرس ، بليد ، ضعيف ﴿هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم﴾ أي هل يتساوى هذا الأخرس ، وذلك الرجل البليغ المتكلم بأفصح بيان ، وهو على طريق الحق والاستقامة ، مستنيرٌ بنور القرآن ؟ وإذا كان العاقل لا يسوّي بين هذين الرجلين ، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر[٣] ،وبين الله سبحانه وهو القادر العليم ، الهادي إلى الصراط المستقيم ؟ ﴿ولله غيب

(١) قال الإمام ابن القيم : ذكر الله تعالى مثلين : فالمثل الأول ضربه لنفسه سبحانه والأوثان ، فالله هو المالك لكل شيء ، ينفق كيف يشاء على عبيده سراً وجهراً ، وليلاً ونهاراً ، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء ، فكيف يجعلونها شركاء إليَّ ويعبدونها من دوني مع التفاوت العظيم والفرق المبين ؟ وأما المثل الثاني فالصنم الذي يُعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم ، لا يعقل ولا ينطق ، بل هو أبكم القلب واللسان ، ومع هذا لا يقدر على شيء البتة ، أينما أرسلته لا يأتيك بخير ، ولا يقضي لك حاجة ، والله سبحانه حيٌّ قادر ، متكلم ، يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم ، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد . أعلام الموقعين لابن القيم . (٢) الرازي ٢٠/ ٩٣ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٣٤٠ .

﴿السَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ﴾

السموات والأرض﴾ أي هو سبحانه المختص بعلم الغيب ، يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض **﴿وما أمرُ الساعةِ إلا كلمحِ البصر أو هو أقرب﴾** أي ما شأن الساعة في سرعة المجيء إلا كنظرة سريعة بطرف العين ، بل هو أقرب لأنه تعالى يقول للشيء : كن فيكون ، وهذا تمثيل لسرعة مجيئها ولذلك قال **﴿إنَّ الله على كل شيء قدير﴾** أي قادرٌ على كل الأشياء ومن جملتها القيامة التي يكذب بها الكافرون **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾** أي أخرجكم من أرحام الأمهات لا تعرفون شيئاً أصلاً **﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾** أي خلق لكم الحواس التي بها تسمعون وتبصرون وتعقلون لتشكروه على نعمه وتحمدوه على آلائه **﴿ألمْ يروا إلى الطير مسخراتٍ في جوِّ السماء﴾** هذا من الأدلة على قدرة الله تعالى ووحدانيته والمعنى : ألم يشاهدوا الطيور مذلّلات للطيران في ذلك الفضاء الواسع بين السماء والأرض **﴿ما يُمسكهنَّ إلا الله﴾** أي ما يمسكهن عن السقوط عند قبض أجنحتهنَّ وبسطها إلا هو سبحانه **﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾** أي إنَّ فيما ذُكر لآيات ظاهرة ، وعلامات باهرة على وحدانيته تعالى لقوم يصدِّقون بما جاءت به رسل الله **﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾** هذا تعداد لنعم الله على العباد أي جعل لكم هذه البيوت من الحجر والمدر لتسكنوا فيها أيام مُقامكم في أوطانكم **﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾** أي وجعل لكم بيوتاً أُخرى وهي الخيام والقُباب المتخذة من الشعر والصوف والوبَر **﴿تستخفونها يوم ظَعْنِكم ويومَ إقامتكم﴾** أي تستخفون حملها ونقلها في أسفاركم ، وهي خفيفةٌ عليكم في أوقات السفر والحضَر **﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً﴾** أي وجعل لكم من صوف الغنم ، ووبر الإبل ، وشعر المعز ما تلبسون وتفرشون به بيوتكم **﴿ومتاعاً إلى حين﴾** أي تنتفعون وتتمتعون بها إلى حين الموت[1] **﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾** أي جعل لكم من الشجر والجبل والأبنية وغيرها ظلالاً تتقون بها حرَّ الشمس **﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾** أي وجعل لكم في الجبال مواضع تسكنون فيها كالكهوف والحصون قال الرازي : لما كانت بلادُ العرب شديدة الحر ، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة ، فلهذا ذكر تعالى هذه المعاني في معرض

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد ، وقال مقاتل : تنتفعون بها إلى أن تبلى .

ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ

النعمة العظيمة[١] ﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرَّ﴾ أي جعل لكم الثياب من القطن والصوف والكتان لتحفظكم من الحر والبرد ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ أي ودروعاً تشبه الثياب تتقون بها شر أعدائكم في الحرب ﴿كذلك يتم نعمته عليكم﴾ أي مثل ما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم فإنه يُتم نعمة الدنيا والدين عليكم ﴿لعلكم تُسلمون﴾ أي لتخلصوا للّهِ الربوبية ، وتعلموا أنه لا يقدر على هذه الإنعامات أحدٌ سواه ﴿فإن تولَّوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان ولم يؤمنوا بما جئتهم به يا محمد فلا ضرر عليك لأن وظيفتك التبليغ وقد بلَّغت الرسالة وأديت الأمانة ﴿يعرفون نعمةَ الله ثم ينكرونها﴾ أي يعرف هؤلاء المشركون نِعَم الله التي أنعم بها عليهم ، ويعترفون بأنها من عند الله ثم ينكرونها بعبادتهم غير المنعم وقال السُّدي : نعمةُ الله هي محمدﷺ عرفوا نبوته ، ثم جحدوها وكذَّبوه[٢] ﴿وأكثرهُم الكافرون﴾ أي أكثرهم يموتون كفاراً وفيه إشارة إلى أن بعضهم يهتدي للإسلام وأما أكثرهم فمصرّون على الكفر والضلال ﴿ويوم نبعث من كل أمةٍ شهيداً﴾ أي ويوم القيامة نحشر الخلائق للحساب ونبعث في كل أمة نبيَّها يشهد عليها بالإيمان والكفر ﴿ثم لا يُؤذن للذين كفروا﴾ أي لا يُؤذن للذين كفروا في الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ﴿ولا هم يُسْتعتبون﴾ أي لا يُطلب منهم أن يسترضوا ربَّهم بقولٍ أو عمل ، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء ، وجاء وقت الحساب والعقاب قال القرطبي : العُتبى هي رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب ، وأصل الكلمة من العتب وهي الموجدة فإذا وجد عليه يقال : عتَب ، وإذا رجع إلى مسرَّتك فقد أعتب[٣] ﴿وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يُخفف عنهم﴾ أي وإذا رأى المشركون عذاب جهنم فلا يُفتَّر عنهم ساعة واحدة ﴿ولا هم يُنظرون﴾ أي لا يُؤخرون ولا يُمهلون ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ أي وإذا أبصر المشركون شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ويزعمون أنهم شركاء الله في الألوهية ﴿قالوا ربَّنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك﴾ أي هؤلاء الذين عبدناهم من دونك قال البيضاوي : وهذا اعترافٌ بأنهم كانوا مخطئين في ذلك والتماس لتخفيف العذاب[٤] ﴿فألقوا إليهم القولَ إنكم لكاذبون﴾ أي أجابوهم بالتكذيب فيما قالوا في تقرير وتوكيد ، وذلك مما يوجب زيادة الغم والحسرة في قلوبهم ﴿وألقوا إلى الله يومئذٍ السَّلم﴾

(١) التفسير الكبير ٢٠/٩٣ . (٢) وهذا اختيار الطبري . (٣) القرطبي ١٠/١٦٣ . (٤) البيضاوي ٢٩٦ .

عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

أي استسلم أولئك الظالمون لحكم الله تعالى بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي بطل ما كانوا يؤملون من أن آلهتهم تشفع لهم عند الله ، ثم أخبر تعالى عن مآلهم بعد أن أخبر عن حالهم فقال ﴿الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله﴾ أي كفروا بالله ومنعوا الناس عن الدخول في دين الإسلام ﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾ أي زدناهم عذاباً في جهنم فوق عذاب الكفر ، لأنهم ارتكبوا جريمة صدّ الناس عن الهدى فوق جريمة الكفر ، فضوعف لهم العذاب جزاءً وفاقاً ﴿بما كانوا يُفسدون﴾ أي بسبب إفسادهم في الدنيا بالكفر والمعصية ﴿ويوم نبعث في كل أمةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم﴾ أي اذكر للناس ذلك اليوم وهوْله حين نبعث في كل أمةٍ نبيَّها ليشهد عليها ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ أي وجئنا بك يا محمد شهيداً على أمتك ﴿ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ أي ونزّلنا عليك القرآن المنير بياناً شافياً بليغاً لكل ما يحتاج الناس إليه من أمور الدين فلا حجة لهم ولا معذرة قال ابن مسعود : قد بُيّن لنا في هذا القرآن كلُّ علمٍ ، وكل شيء[1] ﴿وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين﴾ أي هداية للقلوب ، ورحمة للعباد ، وبشارةً للمسلمين المهتدين ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ أي يأمر بمكارم الأخلاق بالعدل بين الناس ، والإحسان إلى جميع الخلق ﴿وإيتاء ذي القُربى﴾ أي مواساة الأقرباء ، وخصَّه بالذكر اهتماماً به ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ أي ينهى عن كل قبيح من قولٍ ، أو فعلٍ ، أو عملٍ قال ابن مسعود : هذه أجمعُ آيةٍ في القرآن لخيرٍ يُمتثل ، ولشرٍ يُجتنب[2] والفحشاء كل ما تناهى قبحه كالزنى والشرك ، والمنكر كل ما تنكره الفطرة ، والبغي هو الظلم وتجاوز الحق والعدل ﴿يعظكم لعلكم تذكَّرون﴾ أي يؤدبكم بما شرع من الأمر والنهي لتتعظوا بكلام الله .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الاستعارة التمثيلية في ﴿وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم . .﴾ الآية تمثيلٌ للوثن بالأبكم الذي لا ينتفع منه بشيءٍ أصلاً ، مع القادر السميع البصير وشتان بين الرب والصنم .

٢ ـ التشبيه المرسل المجمل في ﴿كلمح البصر﴾ .

---

(١) المختصر ٢/٣٤٣ . (٢) القرطبي ١٠/١٦٥ .

٣ ـ الطباق بين ﴿سراً وجهراً﴾ وبين ﴿يعرفون . . وينكرون﴾ وبين ﴿ظعنكم . . وإقامتكم﴾ .

٤ ـ الإيجاز بالحذف في ﴿سرابيل تقيكم الحرَّ﴾ أي والبرد حذف الثاني استغناءً بذكر الأول .

٥ ـ المقابلة اللطيفة ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة وهو من المحسنات البديعية .

٦ ـ ذكر الخاص بعد العام للاهتمام بشأنه ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ بعد لفظ الإحسان الذي هو عام .

لطيفة : ذكر أن « أكثم بن صيفي » لما بلغه خبر الرسول ﷺ انتدب رجلين فأتياه فقالا : من أنت ؟ وما أنت ؟ فقال أنا محمد بن عبد الله ، وأنا رسول الله ثم تلا علينا هذه الآية ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان . .﴾ الآية فرجعا إلى أكثم فلما قرءا عليه الآية قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن مساوئها ، فكونوا في هذا الأمر رؤساء ، ولا تكونوا فيه أذناباً[١] .

* * *

قال تعالى : ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم . . . إلى . . إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيم﴾ من آية (٩١) إلى نهاية آية (١١٠) .

المناسبة : لما استقصى تعالى في الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، وذكر جملة المكارم والفضائل ، حذَّر تعالى هنا من نقض العهود والمواثيق وعصيان أوامر الله تعالى ، لأن العصيان سبب البلاء والحرمان ؛ ثم ذكر تعالى ما أعده لأهل الإيمان من الحياة الطيبة الكريمة .

اللغة : ﴿تنقضوا﴾ النقض ضدُّ الإبرام ، وهو فك أجزاء الشيء بعضها من بعض ﴿توكيدها﴾ التوكيد التثبيتُ يقال : توكيد وتأكيد ﴿أنكاثاً﴾ أنقاضاً والنكث : النقضُ بعد الفتل ﴿دخلاً﴾ الدَّخل : الدَّغل والخديعة والغش قال أبو عبيدة : كل أمرٍ لم يكن صحيحاً فهو دخَل ﴿ينفد﴾ نفد الشيء ينْفد فني ﴿أعجمي﴾ الأعجمي الذي لا يتكلم العربية وقال الفراء : الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب ، والعجمي الذي أصله من العجم ﴿يُلحدون﴾ الإلحاد : الميل يقال لحد وألحد إذا مال عن القصد والاستقامة .

سَبَبُ النّزول : أ ـ روي أن النبي ﷺ كان يجلس عند المروة إلى غِلام نصراني يقال له « جبْر » وكان يقرأ الكتب فقال المشركون : والله ما يعلِّمه ما يأتي به إلا جبرُ الرومي فأنزل الله عز وجل ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلِّمه بشر . .﴾[٢] الآية .

ب ـ عن ابن عباس أن المشركين أخذوا عمَّار بن ياسر وأباه ياسراً وأمه سُميَّة وصهيباً وبلالاً

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٣٤٤ . . (٢) القرطبي ١٠/ ١٧٧ .

فعذبوهم ، ورُبطت « سُميَّة » بين بعيرين ووُجيء قُبُلها بحربة فقُتلت ، وقُتل زوجها ياسر - وهما أول قتيلين في الإسلام - وأمّا عمّار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مُكرهاً ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال له الرسول الكريم : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئنٌ بالايمان ، فقال رسول الله ﷺ : فإن عادوا فعُدْ وأنزل الله ﴿من كفـر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان . . ﴾[1] الآية .

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ

التفسير : ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ أي حافظوا على العهود التي عاهدتم عليها الرسول أو الناس وأدوها على الوفاء والتمام ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ أي ولا تنقضوا أيمان البيعة بعد توثيقها بذكر الله تعالى ﴿وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً﴾ أي جعلتم الله شاهداً ورقيباً على تلك البيعة ﴿إنَّ الله يعلم ما تفعلون﴾ أي عليم بأفعالكم وسيجازيكم عليها ﴿ولا تكونوا كالتي نقضتْ غزْلها من بعد قوةٍ أنكاثاً﴾ هذا مثلٌ ضربه الله لمن نكث عهده[2] ، شبَّهت الآية الذي يحلف ويعاهد ويُبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكماً ثم تحلُّه أنكاثاً أي أنقاضاً قال المفسرون : كان بمكة امرأة حمقاء تغزل غزلاً ثم تنقضه ، وكان الناس يقولون : ما أحمق هذه ! ﴿تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم﴾ أي تتخذون أيمانكم خديعة ومكراً تخدعون بها الناس ﴿أن تكون أمةٌ هي أربى من أمة﴾ أي لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وأوفر مالاً من غيرها قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعزَّ ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك[3] ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ أي إنما يختبركم الله بما أمركم به من الوفاء بالعهدلينظر المطيع من العاصي ﴿وليُبيننَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ أي ليجازي كل عاملٍ بعمله من خير وشرّ ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ أي لو شاء الله لخلق الناس باستعداد واحد ، وجعلهم أهل ملةٍ واحدة ، لا يختلفون ولا يفترقون ﴿ولكنْ يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي ولكنْ اقتضت حكمته أن يتركهم لاختيارهم ، ناسٌ للسعادة وناس للشقاوة ، فيضلُّ من يشاء بخذلانه إياهم عدلاً ، ويهدي من يشاء بتوفيقه إياهم فضلاً ﴿ولتُسألنَّ عمَّا كنتم تعملون﴾ أي ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم على الفتيل والقطمير ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دَخَلاً بينكم﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في تعظيم شأن العهود أي لا تعقدوا الأيمان وتجعلوها خديعة

(١) القرطبي ١٠/ ١٨٠ وأسباب النزول ١٦٢ . (٢) هذا قول مجاهد وقتادة . (٣) مختصر ابن كثير ١٠/ ١٧١ .

عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾

ومكراً تغرون بها الناس لتحصلوا على بعض منافع الدنيا الفانية[1] ﴿فتزلَّ قدمٌ بعد ثبوتها﴾ أي فتزلَّ أقدامكم عن طريق الاستقامةوعن محجةالحق بعد رسوخها فيه قال ابن كثير: هذا مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها ، وزلَّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة ، المشتملة على الصدّ عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوقٌ بالدين ، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام[2] ولهذا قال ﴿وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله﴾ أي يصيبكم العقاب الدنيوي العاجل الذي يسوءكم لصدكم غيركم عن اعتناق الإسلام بسبب نقض العهود ﴿ولكم عذاب عظيم﴾ أي ولكم في الآخرة عذاب كبير في نار جهنم ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾ أي لا تستبدلوا عهد الله وعهد رسوله بحطام الدنيا الفاني ﴿إنما عند الله هو خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي ما عند الله من الأجر والثواب خير لكم من متاع الدنيا العاجل إذا كنتم تعلمون الحقيقة ، ثم علَّل ذلك بقوله ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ﴾ أي ما عندكم أيها الناس فإنه فانٍ زائل ، وما عند الله فإنه باقٍ دائم ، لا انقطاع له ولا نَفاد ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ﴿ولنجزينَّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ أي ولنثيبنَّ الصابرين بأفضل الجزاء ، ونعطيهم الأجر الوافي على أحسن الأعمال مع التجاوز عن السيئات ، وهذا وعدٌ كريم بمنح أفضل الجزاء على أفضل العمل ، ليكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه ، وكل ذلك بفضل الله ﴿من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن﴾ أي من فعل الصالحات ذكراً كان أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فلنحيينَّه حياةً طيبةً﴾ أي فلنحيننَّه في الدنيا حياة طيبة بالقناعة والرزق الحلال ، والتوفيق لصالح الأعمال وقال الحسن : لا تطيب الحياة لأحدٍ إلا في الجنة لأنها حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا سقم ، وسعادة بلا شقاوة[3] ﴿ولنجزينَّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ أي ولنجزينَّهم في الآخرة بجزاء أحسن أعمالهم ، وما أكرمه من جزاء ! ﴿فإذا قرأت القرآن﴾ أي إذا أردت تلاوة القرآن ﴿فاستعذْ بالله من الشيطان الرجيم﴾ أي فاسأل الله أن يحفظك من وساوس الشيطان وخطراته ، كيلا يوسوس لك عند القراءة

(١) قال في الظلال : « واتخاذ الأيمان غشاً وخداعاً يزعزع العقيدة في الضمير ، ويشوّه صورتها في ضمائر الآخرين ، فالذي يقسم وهو يعلم انه خادع في قسمه ، لا يمكن أن تثبت له عقيدة ولا أن تثبت له قدم على صراطها ، وهو في الوقت نفسه يشوّه صورة العقيدة عند من يُقسم لهم ثم ينكث ، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدَّخل ، ومن ثمَّ يصدهم عن سبيل الله بهذا المثل السيء الذي يضربه للمؤمنين بالله ».

(٢) المختصر ٢/ ٣٤٥ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٢٧ . والقول الأول لابن عباس وهو الأظهر .

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

فيصدكَ عن تدبر القرآن والعمل بما فيه ﴿إنه ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا﴾ أي ليس له تسلطٌ وقدرة على المؤمنين بالإغواء والكفر لأنهم في كنف الرحمن ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي يعتمدون على الله فيما نابهم من شدائد ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾ أي إنما تسلُّطه وسيطرته على الذين يطيعونه ويتخذونه لهم ولياً ﴿والذين هم به مشركون﴾ أي بسبب إغوائه أصبحوا مشركين في عبادتهم وذبائحهم ، ومطاعمهم ومشاربهم ﴿وإذا بدَّلنا آيةً مكان آية﴾ أي وإذا أنزلنا آيةً مكان آية وجعلناها بدلاً منها بأن ننسخ تلاوتها أو حكمها ﴿والله أعلم بما يُنزِّل﴾ جملةٌ اعتراضية سيقت للتوبيخ أي والله أعلم بما هو أصلح للعباد وبما فيه خيرهم ، فإنَّ مثل آياتِ هذا الكتاب كمثل الدواء يُعطى منه للمريض جرعات حتى يماثل الشفاء ، ثم يستبدل بما يصلح له من أنواعٍ أخرى من الأطعمة ﴿قالوا إنما أنت مفتر﴾ أي قال الكفرة الجاهلون إنما أنت يا محمد متقوِّلٌ كاذبٌ على الله ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي أكثرهم جهلة لا يعلمون حكمة الله فيقولون ذلك سفهاً وجهلاً قال ابن عباس : كان إذا نزلت آية فيها شدة ثم نسخت قال كفار قريش : والله ما محمد إلا يسخر من أصحابه ، يأمرهم اليوم بأمرٍ ، وينهاهم غداً عنه ، وإنه لا يقول : ذلك إلا من عند نفسه فنزلت[1] ﴿قل نزَّله روحُ القُدُس من ربك بالحق﴾ أي قل لهم يا محمد : إنما نزَّله جبريل الأمين من عند أحكم الحاكمين بالصدق والعدل ﴿ليثبِّت الذين آمنوا﴾ أي ليثبِّت المؤمنين بما فيه من الحجج والبراهين فيزدادوا إيماناً ويقيناً ﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾ أي وهداية وبشارة لأهل الإسلام الذين انقادوا لحكمه تعالى ، وفيه تعريضٌ بالكفار الذين لم يستسلموا لله تعالى ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلِّمه بشرٌ﴾ أي قد علمنا مقالة المشركين الشنيعة ودعواهم أن هذا القرآن من تعليم « جبْر الرومي » وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجمي﴾ أي لسان الذي يزعمون أنه علَّمه وينسبون إليه التعليم أعجميٌّ ﴿وهذا لسانٌ عربيٌّ مبين﴾ أي وهذا القرآن عربيٌّ في غاية الفصاحة ، فكيف يمكن لمن لسانُه أعجمي أن يُعلم محمداً هذا الكتاب العربيَّ المبين ؟ ومن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه ! ! ﴿إنَّ الذين لا يؤمنون بآياتِ الله لا يهديهم الله﴾ أي إن الذين لا يُصدِّقون بهذا القرآن لا يوفقهم

(١) التفسير الكبير الرازي ٢٠/ ١١٦ .

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

الله لإصابة الحق ، ولا يهديهم إلى طريق النجاة والسعادة ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي لهم في الآخرة عذابٌ موجع مؤلم ، وهذا تهديدٌ لهم ووعيد على كفرهم وافترائهم ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ أي لا يكذب على الله إلا من لم يؤمن بالله ولا بآياته ، لأنه لا يخاف عقاباً يردعه ، فالكذب جريمةٌ فاحشة لا يُقدم عليها مؤمن ، وهذا ردٌّ لقولهم ﴿إنما أنتَ مفترٍ﴾ ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ أي وأولئك هم الكاذبون على الحقيقة لا محمد الرسول الأمين ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾ أي من تلفَّظ بكلمة الكفر وارتد عن الدين بعد ما دخل فيه ﴿إلا منْ أُكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان﴾ أي إلا من تلفَّظ بكلمة الكفر مكرهاً والحال أن قلبه مملوءٌ إيماناً ويقيناً ، والآيةُ تغليظٌ لجريمة المرتد لأنه عرف الإيمان وذاقه ثم ارتدَّ إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة قال المفسرون : نزلت في عمار بن ياسر أخذه المشركون فعذبوه حتى أعطاهم ما أرادوا مُكْرهاً فقال الناس : إنَّ عماراً كفر فقال رسول الله ﷺ : إنَّ عماراً ملىء إيماناً من فرقه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي فقال له رسول الله ﷺ : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئناً بالإيمان قال : إن عادوا فعُدْ[1] ﴿ولكنْ من شرَح بالكفر صدراً﴾ أي طابت نفسه بالكفر وانشرح صدره له ﴿فعليهم غضبٌ من اللهِ ولهم عذابٌ عظيم﴾ أي ولهم غضبٌ شديد مع عذاب جهنم ، إذْ لا جرم أعظم من جرمهم ﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياةَ الدنيا على الآخرة﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم آثروا الدنيا واختاروها على الآخرة ﴿وأنَّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي لا يوفقهم إلى الإيمان ولا يعصمهم من الزيغ والضلال ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعِهم وأبصارهم﴾ أي ختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فجعل عليها غلافاً بحيث لا تُذعن للحق ولا تسمعه ولا تبصره ﴿وأولئك هم الغافلون﴾ أي الكاملون في الغفلة إذْ أغفلتهم الدنيا عنْ تدبر العواقب ﴿لا جَرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ أي حقاً ولا شك ولا ريب في أنهم الخاسرون في الآخرة لأنهم ضيَّعوا أعمارهم في غير منفعة تعود عليهم قال المفسرون :[2] وصفهم تعالى بست صفات هي : الغضب من الله ، والعذاب العظيم ، واختيارهم الدنيا

(١) التفسير الكبير ٢٠/ ١٢١ . (٢) حاشية الصاوي ٢/ ٣٢٩ .

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

على الآخرة ، وحرمانهم من الهدى ، والطبع على قلوبهم ، وجعلهم من الغافلين ﴿ثم إنَّ ربَّك للذينَ هاجروا من بعد ما فُتنوا﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين هاجروا في سبيل الله بعد ما فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب ﴿ثم جاهدوا وصبروا﴾ أي ثم جاهدوا في سبيل الله وصبروا على مشاقّ الجهاد ﴿إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيم﴾ أي إن ربك بعد تلك الهجرة والجهاد والصبر سيغفر لهم ويرحمهم .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ التشبيه التمثيلي ﴿ولا تكونوا كالتي نقضَتْ غزلها﴾ الآية شبه تعالى من يحلف ثم لا يفي بعهده بالمرأة التي تغزل غزلاً ثم تنقضه .

٢ ـ الاستعارة في ﴿فتزلَّ قدم بعد ثبوتها﴾ استعار القدم للرسوخ في الدين والتمكن فيه لأن أصل الثبات يكون بالقدم ولما كان الزلل عن محجة الحق يشبه زلل القدم وانزلاقها عبَّر به عن الانزلاق الحسي بطريق الاستعارة .

٣ ـ الطباق بين ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ وبين ﴿أعجمي . . وعربي﴾ وبين ﴿ينفد . . وباق﴾

٤ ـ جناس الاشتقاق ﴿قرأت القرآن﴾ وفيه مجاز مرسل من إطلاق اسم المسبَّب على السبب أي إذا أردت قراءة القرآن .

٥ ـ الاعتراض ﴿والله أعلم بما يُنزّل﴾ الجملة اعتراضية لبيان الحكمة الإلهية في النسخ ، وفيه التفات من المتكلم إلى الغائب ، وذكر الاسم الجليل لتربية المهابة في النفس .

٦ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿لسان الذي يُلحدون إليه أعجمي﴾ استعار اللسان للّغة والكلام كقول الشاعر :

لسانُ السُّوءِ تُهديها إلينا وخُنْتَ وما حسبتُك أن تخونا[1]

والعرب تستعمل اللسان بمعنى اللغة كقوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه﴾

لطيفَة : السرُّ في الاستعاذة قبل قراءة القرآن أن القرآن هو الذكر الحكيم ، والحق المبين ، ولما كان الشيطان يثير الشبهات بوساوسه ، ويفسد القلوب بدسائسه ، أُمرﷺ بأن يستعيذ بالله ويلتجىء إليه عند تلاوة القرآن ، لأن قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة فيحتاج إلى الاستعانة بالله العلي الكبير .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يوم تأتي كل نفس . . إلى . . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾
من آية (١١١) إلى نهاية السورة الكريمة

المُنَاسَبَة : لما ذكر تعالى حال من كفر بلسانه، وحال من كفر بلسانه وجَنَانه ، ذكر هنا الجزاء

(١) القرطبي ١٠/ ١٧٩

العادل الذي يلقاه كل إنسانٍ في الآخرة ، وما أعدَّه من العقاب العاجل في الدنيا لبعض المكذبين ، ثم ذكر قصة إبراهيم الأوَّاه المنيب ، وأمر الرسول ﷺ باقتفاء آثاره المجيدة .

اللغــــة : ﴿تجادل﴾ تخاصم وتحاجُّ ﴿رغداً﴾ واسعاً هنيئاً بلا كلفةٍ ولا تعب ﴿أنْعم﴾ جمع نعمة كالأشد جمع الشدَّة ﴿أمةً﴾ إماماً جامعاً لخصال الخير ﴿قانتاً﴾ مطيعاً خاضعاً من القنوت وهو الطاعة والخضوع ﴿اجتباه﴾ اصطفاه واختاره ﴿حنيفاً﴾ الحنيف : المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الإسلام ، من الحنف وهو الميل .

سَبَبُ النّزول : لمَّا قُتل حمزة ومثَّل به المشركون في غزوة أُحد قال ﷺ حين رآه (واللهِ لأُمثلنَّ بسبعين منهم مكانك) فنزلت الآية الكريمة ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . .﴾[1] الآية .

* ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ﴾

التفسيــــر : ﴿يوم تأتي كلُّ نفسٍ تجادل عن نفسها﴾ أي ذكِّرْهم يوم القيامة حين تخاصم كلُّ نفسٍ عن ذاتها سعياً في خلاصها ، لا يهمها شأنُ غيرها ﴿وتُوفّى كل نفسٍ ما عملت﴾ أي تُعطى جزاءَ ما عملت من غير بخْسٍ ولا نقصان ﴿وهم لا يُظلمون﴾ أي لا ينقصون أجورهم بل يُعطونها كاملةً وافية ﴿وضرب الله مثلاً قرية﴾ هذا مثلٌ ضربه الله لأهل مكة وغيرهم ، بقومٍ أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فعصوا وتمردوا ، فبدَّل الله نعمتهم بنقمة ﴿كانت آمنةً مطمئنة﴾ أي كان أهلها في أمنٍ واستقرار ، وسعادة ونعيم ﴿يأتيها رزقها رغداً من كل مكان﴾ أي تأتيها الخيرات والأرزاق بسعةٍ وكثرةٍ من كل الجهات ﴿فكفرت بأنعم الله﴾ أي لم يشكروا الله على ما آتاهم من خير ، وما وهبهم من رزق ﴿فأذاقها اللهُ لباسَ الجوع والخوف﴾ أي سلبهم اللهُ نعمة الأمن والاطمئنان ، وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمان ﴿بما كانوا يصنعون﴾ أي بسبب كفرهم ومعاصيهم ، قال الرازي : وهذا مثلُ أهل مكة لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخِصْب ، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد ﷺ فكفروا به ، وبالغوا في إيذائه ، فعذبهم الله بالقحط والجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام[2] ﴿ولقد جاءهم رسولٌ منهم فكذبوه﴾ أي ولقد جاءهم محمد بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة وهو رسولٌ منهم يعرفون أصله ونسبه فلم يصدقوه ولم يؤمنوا برسالته ، والآية دالة على أن المراد بهم أهل مكة وهو قول ابن عباس ﴿فأخذهم العذابُ وهم ظالمون﴾ أي فأصابتهم الشدائد والنكبات وهم ظالمون بارتكاب المعاصي والآثام ﴿فكلوا ممَّا

---

(١) زاد المسير ٤/٥٠٧ . (٢) التفسير الكبير ٢٠/١٢٨ .

ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٩﴾

رزقكم اللهُ حلالاً طيباً﴾ أي كلوا من نِعَم الله التي أباحها لكم حال كونها حلالاً طيباً ﴿واشكروا نعمة الله إن كنتم إيّاه تعبدون﴾ أي واشكروا الله على نعمه الجليلة إن كنتم مخلصين في إيمانكم لا تعبدون أحداً سواه ، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فقال ﴿إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ أي لم يحرم ربكم عليكم أيها الناس إلا ما فيه أذى لكم كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وما أُهلَّ لغير الله به﴾ أي وما ذبح على اسم غير الله تعالى فإنَّ فيه أذى للنفس والعقيدة ﴿فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم﴾ أي فمن اضطر لأكل ما حرَّم الله من المذكورات من غير بغيٍ ولا عدوان فإن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة لا يؤاخذ من كان مضطراً ، ثم وبّخ تعالى المشركين الذين حلّلوا وحرّموا من تلقاء أنفسهم فقال ﴿ولا تقولوا لما تصفُ ألسنتكم الكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ﴾ أي لا تقولوا أيها المشركون في شأن ما تصفه ألسنتكم من الكذب هذا حلالٌ وهذا حرام من غير دليلٍ ولا برهان ﴿لتفتروا على الله الكذب﴾ أي لتكذبوا على الله بنسبة ذلك إليه ﴿إن الذين يفترون على الله الكذبَ لا يفلحون﴾ أي إن الذين يختلقون الكذبَ على الله لا يفوزون ولا يظفرون بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿متاعٌ قليلٌ ولهم عذاب أليم﴾ أي انتفاعهم واستمتاعهم في الدنيا قليل لأنه زائل ، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم ، ثم ذكر تعالى ما حرَّم على اليهود فقال ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبلُ﴾ أي وعلى اليهود خاصة حرمنا عليهم ما قصصنا عليك يا محمد مما سبق ذكره في سورة الأنعام عقوبةً لهم وهي شحوم البقر والغنم وكل ذي ظفر ﴿وما ظلمناهم ولكنْ كانوا أنفسهم يَظْلمون﴾ أي وما ظلمناهم بذلك التحريم ولكنْ ظلموا أنفسهم فاستحقوا ذلك كقوله ﴿فبظلمٍ من الذين هادوا حرمنا عليهم طيباتٍ أحلَّت لهم﴾ ﴿ثم إنَّ ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين ارتكبوا تلك القبائح بجهلٍ وسفه ﴿ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ أي ثم رجعوا إلى ربهم وأنابوا وأصلحوا العمل بعد ذلك الزلل ﴿إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيم﴾ أي إنه تعالى واسع المغفرة عظيم الرحمة ، والآية

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾

تأنيسٌ لجميع الناس وفتحٌ لباب التوبة ﴿إن إبراهيم كان أمةً﴾ أي إنَّ إبراهيم كان إماماً قدوةً جامعاً لخصال الخير ولذلك اختاره الله لخلته ﴿قانتاً لله﴾ أي مطيعاً لربه قائماً بأمره ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق ، دين الإسلام ﴿ولم يك من المشركين﴾ تأكيد لما سبق وردٌّ على اليهود والنصارى في زعمهم أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ﴿شاكراً لأنعمه﴾ أي قائماً بشكر نعم الله ﴿اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم﴾ أي اختاره واصطفاه للنبوة وهداه إلى الإسلام وإلى عبادة الواحد الأحد ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ أي جعلنا له الذكر الجميل في الدنيا ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي وهو في الآخرة من أصحاب الدرجات الرفيعة ، وفي أعلى مقامات الصالحين ﴿ثم أوحينا إليك أن اتَّبعْ ملة إبراهيم حنيفاً﴾[1] لما وصف تعالى إبراهيم بتلك الأوصاف الشريفة أمر نبيه محمداًﷺ أن يتَّبع ملته والمعنى ثم أمرناك يا محمد باتباع دين إبراهيم وملته الحنيفية السمحة ﴿وما كان من المشركين﴾ أي وما كان يهودياً أو نصرانياً ، وإنما كان حنيفاً مسلماً ، وهو تأكيد آخر لردّ مزاعم اليهود والنصارى أنهم على دينه ﴿إنما جُعل السبتُ على الذين اختلفوا فيه﴾ أي لم يكن تعظيم يوم السبت وتركُ العمل فيه من شريعة إبراهيم ولا من شعائر دينه ، وإنما جعل تغليظاً على اليهود لاختلافهم في الدين وعصيانهم أمر الله ، حيث نهاهم عن الاصطياد فيه فاصطادوا فمسخهم قردةً وخنازير ﴿وإنَّ ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي وسيفصل الله تعالى بينهم يوم القيامة ، فيجازي كلاً بما يستحق من الثواب أو العقاب ﴿أدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ أي أدع يا محمد الناس إلى دين الله وشريعته القدسية بالأسلوب الحكيم ، واللطف واللين ، بما يؤثر فيهم وينجع ، لا بالزجر والتأنيب والقسوة والشدة ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ أي وجادل المخالفين بالطريقة التي هي أحسن من طرق المناظرة والمجادلة بالحجج والبراهين ، والرفق واللين ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي إن ربك يا محمد هو العالم بحال الضالين وحال المهتدين ،

(١) قال المفسرون : العطف بثمَّ ﴿ثم أوحينا إليك﴾ فيه تعظيم منزلة الرسولﷺ وإجلال محله فكأنه بعد أن عدَّد مناقب الخليل عليه السلام قال : وههنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً ، وأرفع رتبة ، وهو أن النبيﷺ الأمي الذي هو سيد البشر متبعٌ لملة إبراهيم ، مستمسك بشريعته وكفى بذلك فخراً .

﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

فعليك أن تسلك الطريق الحكيم في دعوتهم ومناظرتهم ، وليس عليك هدايتهم ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ أي وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم فعاملوه بالمثل ولا تزيدوا قال المفسرون : نزلت في شأن « حمزة بن عبد المطلب » لما بقر المشركون بطنه يوم أُحد ، فقال النبي ﷺ : لئن أظفرني الله بهم لأمثلنَّ بسبعين منهم ﴿ولئنْ صبرْتُمْ لهو خيرٌ للصابرين﴾ أي ولئن عفوتم وتركتم القصاص فهو خير لكم وأفضل ، وهذا ندبٌ إلى الصبر ، وترك عقوبة من أساء ، فإن العقوبة مباحة وتركها أفضل ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ أي واصبر يا محمد على ما ينالك من الأذى في سبيل الله ، فما تنال هذه المرتبة الرفيعة إلا بمعونة الله وتوفيقه ﴿ولا تحزنْ عليهم﴾ أي لا تحزن على الكفار إن لم يؤمنوا ﴿ولا تكُ في ضيْقٍ مما يمكرون﴾ أي ولا يضقْ صدرك بما يقولون من السَّفه والجهل ، ولا بما يدبرون من المكر والكيد ﴿إنَّ الله مع الذين اتَّقوا والذين هم محسنون﴾ أي مع المتقين بمعونته ونصره ، ومع المحسنين بالحفظ والرعاية ، ومن كان الله معه فلن يضرَّه كيد الكائدين .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات من صنوف البيان والبديع ما يلي :

١ - الاستعارة المكنية ﴿فأذاقها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوف﴾ شبَّه ذلك اللباس من حيث الكراهية بالطعم المُر البشع وحذف المشبه به ورمز إليه بشيءٍ من لوازمه وهو الإذاقة على طريق الاستعارة المكنية .

٢ - الطباق بين ﴿حلال . . وحرام﴾ .

٣ - الالتفات ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ التفت عن الغيبة إلى التكلم إشارة إلى زيادة الاعتناء بشأنه وتفخيم أمره .

٤ - التشبيه البليغ ﴿كان أمةً﴾ أي كان بمفرده كالأمة والجماعة الكثيرة لجمعه أوصاف الكمالات التي تفرقت في الخلق كما قال الشاعر :

« وليس على الله بمستنكر أنْ يجمع العالم في واحد » .

تَنْبِيه : دل قوله تعالى ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ على الحث على الإنصاف في المناظرة ، واتباع الحق ، والرفق والمداراة ، على وجهٍ يظهر منه أن القصد إثباتُ الحق وإزهاقُ الباطل ، لا نصرة الرأي وهزيمة الرأي الآخر .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النحل ولله الحمد والمنة »

* * *



بين يدي السورة

سورة الإسراء من السور المكية التي تهتم بشئون العقيدة ،شأنها كشأن سائر السور المكية من العناية بأصول الدين «الوحدانية ، والرسالة ، والبعث» ولكنَّ العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو «شخصية الرسول» ﷺ ، وما أيده الله به من المعجزات الباهرة ، والحجج القاطعة ، الدالة على صدقه عليه الصلاة والسلام .

* تعرضت السورة الكريمة لمعجزة الإسراء ، التي كانت مظهراً من مظاهر التكريم الإلهي ، لخاتم الأنبياء والمرسلين ، وآية باهرة تدل على قدرة الله جل وعلا في صنع العجائب والغرائب .

* وتحدثت عن بني إسرائيل ،وما كتب الله عليهم من التشرد في الأرض مرتين ، بسبب طغيانهم وفسادهم وعصيانهم لأوامر الله ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدُنَّ في الأرض مرتين . .﴾ الآيات .

* وتحدثت عن بعض الآيات الكونية ، التي تدل على العظمة والوحدانية ، وعن النظام الدقيق الذي يحكم الليل والنهار ، ويسير وفق ناموسٍ ثابت لا يتبدل ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل . .﴾ الآيات .

* وتعرضت السورة إلى بعض الآداب الاجتماعية ، والأخلاق الفاضلة الكريمة ، فحثت عليها ، ودعت إلى التحلي بها ليكون هناك المجتمع المثالي الفاضل بدءاً من قوله تعالى ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه . .﴾ الآيات .

* وتحدثت عن ضلالات المشركين حيث نسبوا إلى الله تعالى الصاحبة والولد ، والعجيب في أمرهم أنهم يكرهون البنات ، ثم ينسبونها إلى العلي الكبير ، المنزه عن الشبيه والنظير ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً . .﴾ الآيات .

* وتحدثت عن البعث والنشور، والمعاد والجزاء ، الذي كثر حوله الجدل ، وأقامت الأدلة والبراهين على إمكانه، ثم تحدثت عن القرآن العظيم، معجزة محمد ﷺ الخالدة، وذكرت تعنت المشركين في اقتراحاتهم، حيث طلبوا معجزة أخرى غير القرآن ، أن يفجّر لهم الأنهار ، ويجعل مكة حدائق وبساتين

﴿وقالوا لن نؤ من لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . .﴾ الآيات .

* ثم ختمت السورة بتنزيه الله عن الشريك والولد ، وعن صفات النقص ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذل وكبّره تكبيراً﴾ .

التسمية : سميت السورة الكريمة « سورة الإسراء » لتلك المعجزة الباهرة معجزة الإسراء التي خص الله تعالى بها نبيه الكريم .

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ

اللغة : ﴿سبحان﴾ اسمٌ للتسبيح ومعناه تنزيه الله تعالى من كل سوء ونقصٍ وهو خاصٌ به سبحانه ﴿أسرى﴾ الإسراء : السيرُ ليلاً يقال : أسرى وسرى لغتان قال الشاعر :

سريتَ من حَرَمٍ ليلاً إلى حَرَمٍ كما سَرَى البـدرُ في دَاجٍ من الظُّلَم

﴿فجاسوا﴾ قال الزجاج : طافوا ، والجَوْسُ : الطواف بالليل والتردُّد والطلب مع الاستقصاء وقال الواحدي : الجوسُ هو التردُّد والطلب ﴿الكرَّة﴾ الدَّولة والغَلَبة ﴿تتبيراً﴾ هلاكاً ودماراً ﴿محونا﴾ طمسنا قال علماء اللغة : المحوُ إذهاب الأثر يقال محوتُه فانمحى أي ذهب أثره ﴿طائره﴾ عمله المقدَّر عليه سمي الخير والشر بالطائر لأن العرب كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بالطير إذا طار جهة اليمين أو الشمال ﴿مترفيها﴾ المُترَفُ : المتنعِّمُ الذي أبطرته النعمةُ وسَعَةُ العيش ﴿يصلاها﴾ يدخلها ويذوق حرَّها ﴿مدحوراً﴾ مطروداً مبعداً من رحمة الله .

التفسير : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ أي تنزَّه وتقدَّس عما لا يليق بجلاله ، اللهُ العليُّ الشأن ، الذي انتقل بعبده ونبيه محمدﷺ في جزءٍ من الليل ﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا﴾ أي من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ، وسمي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام قال المفسرون : وإنما قال ﴿ليلاً﴾ بلفظ التنكير لتقليل مدة الإسراء ، وأنه قطع به المسافات الشاسعة البعيدة في جزءٍ من الليل وكانت مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أبلغ في القدرة والإعجاز ولهذا كان بدء السورة بلفظ ﴿سبحان﴾ الدال على كمال القدرة ، وبالغ الحكمة ، ونهاية تنزهه تعالى عن صفات المخلوقين ، وكان الإسراء بالروح والجسد ، يقظة لا مناماً ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي الذي باركنا ما حوله بأنواع البركات الحسية والمعنوية ، بالثمار والأنهار التي خصَّ الله بها بلاد الشام ، وبكونه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة الأطهار ﴿لنريه من آياتنا﴾ أي لنريَ محمداًﷺ آياتنا العجيبة العظيمة ، ونطلعه على ملكوت السموات

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾

والأرض،فقد رأى صلوات الله عليه السموات العُلى والجنةَوالنار،وسدرة المنتهى،والملائكةوالأنبياء وغير ذلك من العجائب والآيات التي تدل على قدرة الله تعالى ﴿إنه هو السميعُ البصير﴾ أي إنه تعالى هو السميع لأقوال محمد ، البصير بأفعاله ، فلهذا خصَّه بهذه الكرامات والمعجزات احتفاءً وتكريماً ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدىً لبني إسرائيل﴾ أي أعطينا موسى التوراة هدايةً لبني إسرائيل يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان ﴿ألاّ تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ أي لا تتخذوا لكم رباً تكلون إليه أموركم سوى الله الذي خلقكم قال المفسرون :لما ذُكر المسجدُ الأقصى وهو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني إسرائيل جاء الحديث عنهم في مكانه المناسب من سياق السورة ﴿ذريةَ من حملنا مع نوح﴾ أي يا ذرية ويا أبناء المؤمنين الذين كانوا مع نوح في السفينة ، لقد نجينا آباءكم من الغرق فاشكروا الله على إنعامه ﴿إنه كان عبداً شكوراً﴾ أي إن نوحاً كان كثير الشكر يحمد الله على كل حال فاقتدوا به ، وفي النداء لهم تلطفٌ وتذكير بنعمة الله ﴿وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب﴾ أي أخبرناهم وأعلمناهم وأوحينا إليهم في التوراة ﴿لتُفْسِدُنَّ في الأرض مرتين﴾ أي ليحصلنَّ منكم الإفساد في أرض فلسطين وما حولها مرتين[1] قال ابن عباس : أول الفساد قتل زكريا والثاني قتل يحيى عليهما السلام ﴿ولَتَعْلُنَّ علواً كبيراً﴾ أي تطغون في الأرض المقدسة طغياناً كبيراً بالظلم والعدوان وانتهاك محارم الله ﴿فإذا جاء وعد أُولاهما﴾ أي أُولى المرتين من الإفساد ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا﴾ أي سلَّطنا عليكم من عبيدنا أناساً جبارين للانتقام منكم ﴿أولي بأسٍ شديد﴾ أي أصحاب قوةٍ وبطش في الحرب شديد قال المفسرون : إن بني إسرائيل لما استحلوا المحارم وسفكوا الدماء سلَّط الله عليهم بختنصَّر ملك بابل فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفنيهم هو وجنوده ، وذلك أول الفسادين ﴿فجاسوا خلالَ الديار﴾ أي طافوا وسط البيوت يروحون ويغدون للتفتيش عنكم واستئصالكم بالقتل والسلب والنهب لا يخافون من أحد ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ أي كان ذلك التسليط والانتقام قضاءً جزماً حتماً لا يقبل النقض والتبديل ﴿ثم رددنا لكم الكَرَّة عليهم﴾ أي ثمَّ لما تبتم وأنبتم أهلكنا أعداءكم ورددنا لكم الدَّوْلَةَ والغلبة عليهم بعد ذلك البلاء الشديد ﴿وأمددناكم بأموالٍ وبنين﴾ أي أعطيناكم الأموال الكثيرة والذرية

(١) قضاء الله على بني إسرائيل بالإفساد مرتين ليس قضاء قهر وإلزام ، وإنما هو إخبارٌ من الله تعالى بما سيكون منهم حسب ما وقع في علمه الإلهي الأزلي فتنبَّهْ .

وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـࣳـٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ

الوفيرة، بعد أن نهُبت أموالكم وسُبيت أولادكم ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ أي جعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم لتستعيدوا قوتكم وتبنوا دولتكم ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾ أي إن أحسنتم يا بني إسرائيل فإحسانكم لأنفسكم ونفعه عائد عليكم لا ينتفع الله منها بشيء ﴿وإن أسأتم فلها﴾ أي وإن أسأتم فعليها لا يتضرر الله بشيء منها ، فهو الغني عن العباد ، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ﴿فإذا جاء وعدُ الآخرة﴾ أي فإذا جاء وعد المرة الأخيرة من إفسادكم بقتل يحيى وانتهاك محارم الله بعثنا عليكم أعداءكم مرة ثانية ﴿ليسوءوا وجوهكم﴾ أي بعثناهم ليهينوكم ويجعلوا آثار المساءة والكآبة باديةً على وجوهكم بالإذلال والقهر ﴿وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة﴾ أي وليدخلوا بيت المقدس فيخربوه كما خربوه أول مرة ﴿وليتبِّروا ما علَوْا تتبيراً﴾ أي وليدمروا ويهلكوا ما غلبوا عليه تدميراً ، فقد سلّط الله عليهم مجوس الفرس فشردوهم في الأرض وقتلوهم ودمَّروا مملكتهم تدميراً ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ أي لعل الله يرحمكم ويعفو عنكم إن تبتم وأنبتم ، وهذا وعدٌ منه تعالى بكشف العذاب عنهم إن رجعوا إلى الله و﴿عسى﴾ من الله واجبة ﴿وإن عدتم عدنا﴾ أي وإن عدتم إلى الإفساد والإجرام عدنا إلى العقوبة والانتقام[1] ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ أي وجعلنا جهنم محبساً وسجناً للكافرين ، لا يقدرون على الخروج منها أبَدَ الآبدين ، ثم بيَّن تعالى مزية التنزيل الكريم الذي فاق بها سائر الكتب السماوية فقال ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ أي إنَّ هذا القرآن العظيم يهدي لأقوم الطرق وأوضح السُّبُل ، ولما هو أعدل وأصوب ﴿ويُبشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجراً كبيراً﴾ أي ويبشر المؤمنين الذين يعملون بمقتضاه بالأجر العظيم في جنات النعيم ﴿وأنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ أي ويبشرهم بأن لأعدائهم الذين لا يصدقون بالآخرة العقاب الأليم في دار الجحيم ، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب ﴿ويدعُ الإنسان بالشرِّ دعاءه بالخير﴾ أي يدعو بالشر على نفسه كدعائه لها بالخير ،

(١) قال في الظلال : «ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها ، ثم عادوا إلى الإفساد فسلّط الله عليهم عباداً آخرين ، حتى كان العصر الحديث فسلط الله عليهم «هتلر» ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة «إسرائيل» وليسلطنَّ الله عليهم من يسومهم سوء العذاب تصديقاً لوعد الله القاطع ، وفاقاً لسنَّته التي لا تتخلف ، وإنَّ غداً لناظره قريب» .

ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ

ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك قال ابن عباس : هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحبُّ أن يستجاب له : اللهمَّ أهلكه اللهمَّ دمِّره ونحوه[1] ﴿وكـان الإنسـان عجولاً﴾ أي ومن طبيعة الإنسان العجلة ، يتعجل بالدعاء على نفسه ويسارع لكل ما يخطر بباله ، دون النظر في عاقبته ، ثم أشار تعالى إلى آيات الله الكونية في هذا الوجود ، التي كلٌ منها برهانٌ نيرٌ على وحدانية الله فقال ﴿وجعلنا الليلَ والنهـار آيتين﴾ أي علامتين عظيمتين على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ﴿فمحونـا آية الليـل﴾ أي طمسنا الليل فجعلناه مظلماً لتسكنوا فيه ﴿وجعلنـا آية النهـار مبصـرة﴾ أي جعلنا النهار مضيئاً مشرقاً بالنور ليحصل به الإبصار ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ أي لتطلبـوا في النهـار أسبـاب معايشـكم ﴿ولتعلموا عدد السنينَ والحساب﴾ أي ولتعلموا عدد الأيام والشهور والأعوام ، بتعاقب الليل والنهار ، فالليل للراحة والسكون ، والنهار للكسب والسعي ﴿وكلَّ شيءٍ فصَّلنـاه تفصيـلاً﴾ أي وكلَّ أمرٍ من أمور الدنيا والدين ، بينَّاه أحسن تبيين ، وليس شيء من أمر هذا الوجود متروكاً للمصادفة والجُزاف ، وإنما هو بتقديرٍ وتدبيرٍ حكيم ﴿وكلَّ إنسـانٍ ألزمنـاه طائره في عنقـه﴾ أي أن الإنسان مرهون بعمله مجـزي به ، وعملُه ملازم له لزوم القلادة للعُنُق لا ينفك عنه أبداً ﴿ونُخـرج له يوم القيامـة كتاباً يلقـاه منشوراً﴾ أي نظهر له في الآخرة كتاب أعماله مفتوحاً فيه حسناته وسيئاته فيرى عمله مكشوفاً لا يملك إخفاءه أو تجاهله ﴿إقرأ كتابك كفى بنفسك اليومَ عليك حسيباً﴾ أي إقرأ كتاب عملك كفى أن تكون اليوم شهيداً بما عملت ، لا تحتاج إلى شاهد أو حسيب ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسـه ومن ضلَّ فإنمـا يضلُّ عليهـا﴾ أي من اهتدى فثواب اهتدائه له ، ومن ضلَّ فعقاب كفره وضلاله عليها ﴿ولا تزر وازرةٌ وزر أخـرى﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه ﴿وما كنا معذبيـن حتى نبعـث رسـولاً﴾ أي وما كنا معذبين أحداً من الخلق حتى نبعث لهم الرسل مذكرين ومنذرين فتقوم عليهم الحجة ﴿وإذا أردنـا أن نهلك قريـة أمرنا مترفيهـا ففسقوا فيهـا﴾ أي وإذا أردنا هلاك قوم من الأقوام أمرنا المتنعِّمين فيها والقادة والرؤساء بالطاعة على لسان رسلنا فعصوا أمرنا وخرجوا عن طاعتنا وفسقوا وفجروا ﴿فحقَّ عليها القول فدمَّرناهـا تدميـراً﴾

(١) القرطبي ١٠/ ٢٢٥.

عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾

أي فوجب عليهم العذاب بالفسق والطغيان فأهلكناهم إهلاكاً مُريعاً قال ابن عباس : ﴿أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ أي سلَّطنا أشرارها فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب[1] ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾ أي وكثير من الأمم الطاغية المكذبين للرسل أهلكناهم من بعد نوح كقوم عاد وثمود وفرعون قال ابن كثير : والآية إنذار لكفار قريش والمعنى إنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى[2] ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ أي كفى يا محمد أن يكون ربك رقيباً على أعمال العباد يدرك بواطنها وظواهرها ويجازي عليها ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ أي من كان يريد بعمله الدنيا فقط ولها يعمل ويسعى ليس له همٌّ إلا الدنيا عجلنا له فيها ما نشاء تعجيله من نعيمها لا كلَّ ما يريد ﴿ثم جعلنا له جهنَّم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾ أي ثم جعلنا له في الآخرة جهنم يدخلها مهاناً حقيراً مطروداً من رحمة الله ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾ أي ومن أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم ، وعمل لها عملها الذي يليق بها من الطاعات وهو مؤ من صادق الإيمان ﴿فأولئك كان سعيُهم مشكوراً﴾ أي فأولئك الجامعون للخصال الحميدة من الإخلاص ، والعمل الصالح ،والإيمان .كان عملهم مقبولاً عند الله أحسن القبول، مثاباً عليه ﴿كلاً نُمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾ أي كل واحدٍ من الفريقين الذين أرادوا الدنيا ، والذين أرادوا الآخرة نعطيه من عطائنا الواسع تفضلاً منا وإحساناً ، فنعطي المؤ من والكافر والمطيع والعاصي ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي ما كان عطاؤ ه تعالى محبوساً ممنوعاً عن أحد ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ أي أنظر يا محمد كيف فاوتنا بينهم في الأرزاق والأخلاق في هذه الحياة الدنيا فهذا غني وذاك فقير ، وهذا شريف وذاك حقير ﴿وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً﴾ أي ولتفاوتُهم في الدار الآخرة أعظم من التفاوت في هذا الدار لأن الآخرة دار القرار وفيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أُذُنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ أي لا تجعل مع الله شريكاً ولا تتخذ غيره إلهاً تعبده ﴿فتقعد مذموماً مخذولاً﴾ أي فتصير ملوماً عند الله مخذولاً منه لا ناصر لك ولا معين .

البَـــلاَغَـــة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) المختصر ٢/ ٣٧١ . (٢) المختصر ٢/ ٣٧١ .

١ ـ براعة الاستهلال ﴿سبحان الذي أسرى﴾ لأنه لما كان أمراً خارقاً للعادة بدأه بلفظ يشير إلى كمال القدرة وتنزه الله عن صفات النقص .

٢ ـ إضافة التكريم والتشريف ﴿بعبده﴾ .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿ولتعلُنَّ علواً﴾ ﴿تَزر وازرةٌ﴾ .

٤ ـ الطباق بين ﴿أحسنتم . . وأسأتم﴾ وبين ﴿ضل . . واهتدى﴾ .

٥ ـ إيجاز بالحذف ﴿إقرأ كتابك﴾ أي يقال له يوم القيامة إقرأ كتابك ﴿أمرنا مترفيها﴾ أي أمرناهم بطاعة الله فعصوا وفسقوا فيها .

٦ ـ المجاز العقلي ﴿آية النهار مبصرةً﴾ لأن النهار لا يُبصر بل يُبْصر فيه فهو من إسناد الشيء إلى زمانه .

٧ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿طائره في عنقه﴾ استعير الطائر لعمل الإنسان ، ولما كان العرب يتفاءلون ويتشاءمون بالطير سموا نفس الخير والشر بالطائر بطريق الاستعارة .

لطيفة : الحكمة في إسرائه إلى بيت المقدس ثم عروجه من بيت المقدس إلى السموات العلى أنه مجمع أرواح الأنبياء ، وموطن تنزل الوحي الإلهي على الرسل الكرام ، ولما كانت هذه الرحلة رحلة تكريم أراد تعالى أن يشرفهم بزيارته . ولهذا صلى بهم إماماً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

تنبيه : وصفه تعالى في هذه السورة بالعبودية ﴿أسرى بعبده﴾ لأنه أشرف المقامات وأسمى المراتب العلية ، كما وصفه في مقام الوحي كذلك ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ وفي مقام الدعوة ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ ولهذا قال القاضي عياض :

ومما زادني شرفاً وتيهاً	وكدتُ بأخمصي أطأ الثريّا
دخولي تحت قولك يا عبادي	وأن صيَّرت أحمد لي نبياً

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إيَّاه وبالوالدين إحساناً . . إلى . . فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾ من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٤٨) .

المناسبة : لما جعل تعالى الإيمان والعملَ الصالح أساساً للفوز بالسعادة الأبدية ، وبيَّن حال المؤمن الذي أراد بعمله الدار الآخرة ، ذكر هنا طائفةً من الأوامر والزواجر التي يقوم عليها بنيان المجتمع الفاضل ، ثم ذكر تعالى موقف المشركين المكذبين من هذا القرآن العظيم .

اللغــــة : ﴿أفٍّ﴾ كلمة تضجُّر وتبرُّم قال ابن الأعرابي الأفُّ : الضجر ، وأصلها أنه إذا سقط تراب أو رماد فنفخ الإنسان ليزيله ، فالصوت الحاصل هو أُفّ ثم توسعوا في الكلمة حتى أصبحت تقال لكل مكروه ﴿تنْهرهمـا﴾ النهْرُ : الزجرُ والغِلظة ﴿الأوَّابيـن﴾ جمع أوَّاب وهو كثير التوبة والإنابة من الأوْب بمعنى الرجوع ﴿محسوراً﴾ منقطعاً عن النفقة والتصرف قال الفراء : تقول العرب للبعير هو محسور إذا انقطع سيره ، وحَسَرت الدابة إذا انقطعت عن المسير لذهـاب قوتها ، فشُبِّه حال من أنفق كلّ ماله بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته[1] ﴿إمـلاق﴾ فقر وفاقة ، أملـق الرجـل إذا افتقـر ﴿خِطْـأً﴾ قال الأزهري : خطىء يَخْطَأُ خِطأً إذا تعمَّد الخطأ ، وأخطأ إذا لم يتعمد[2] ﴿القِسْطـاس﴾ الميزان مأخوذ من القِسْط وهو العدل ﴿تَقْـفُ﴾ تتَّبعْ مأخوذ من قفوتُ أثر فلان إذا اتبعت أثَره وأصله البهتُ والقذف بالباطل ﴿مَرَحاً﴾ المَرَح : شدة الفرح والمراد به هنا التكبر والخيلاء ﴿صرَّفنا﴾ بيَّنا ﴿أكنَّة﴾ جمع كِنان وهو الغطاء الذي يستر الشيء ﴿وقراً﴾ صمماً وثقلاً .

* ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

التفسـير : ﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إيَّاه﴾ أي حكم تعالى وأمر بأن لا تعبدوا إلهاً غيره وقال مجاهد : ﴿وقضى﴾ يعني وصَّى بعبادته وتوحيده ﴿وبالوالدين إحسانـاً﴾ أي وأمر بأن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً قال المفسرون : قرن تعالى بعبادته برَّ الوالدين لبيان حقهما العظيم على الولد لأنهما السبب الظاهر لوجوده وعيشه ، ولما كان إحسانهما إلى الولد قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسان الولد إليهما كذلك ﴿إمّا يبلغنَّ عنـدكَ الكِبَر أحدهمـا أو كلاهمـا﴾ أي قد أوصينـاك بهما وبخاصـة إذا كبـرا أو كبـر أحدهما ، وإنما خصَّ حالة الكِبَر لأنهما حينئذٍ أحوج إلى البر والقيام بحقوقهما لضعفهما ومعنى ﴿عندك﴾ أي في كنفك وكفالتك ﴿فلا تقل لهما أفٍّ﴾ أي لا تقل للوالدين أقل كلمة تظهر الضجر ككلمـة أفٍّ ولا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولو بكلمة التأفف ﴿ولا تنهرهما﴾ أي لا تزجرهما بإغلاظٍ فيما لا يعجبك منهما ﴿وقلْ لهما قولاً كريماً﴾ أي قل لهما قولاً حسناً ليناً طيباً بأدبٍ ووقار وتعظيم ﴿واخفِضْ لهمـا جناح الـذُّلّ من الرحمـة﴾ أي ألنْ جانبـك وتواضعْ لهما بتذلّل وخضوع من فـرط رحمتك وعطفـك عليهما ﴿وقلْ ربِّ ارحمهمـا كما ربيـاني صغيراً﴾ أي أدعُ لهما بالرحمة وقل في دعائك يا رب ارحم والديَّ برحمتك الواسعة كما أحسنا إليَّ في تربيتهما حالة الصغر ﴿ربُّكم أعلـم بما نفوسكـم﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بما في نفوسكم من إرادة البر أو العقوق ﴿إن تكونـوا صالحين فإنـه كان للأوابين غفـوراً﴾ أي إن تكونوا قاصدين للبـرّ والصـلاح دون

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٠/ ١٩٥ . (٢) القرطبي ١٠/ ٢٥٢ .

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾

العقوق والفساد فإنه جلَّ وعلا يتجاوز عن سيئاتكم ويغفر للأوابين وهم الذين كلما أخطأوا عادوا إلى ربهم مستغفرين قال الرازي : والمقصود من هذه الآية أن الأولى لما دلَّت على وجوب تعظيم الوالدين ثم إن الولد قد يظهر منه ما يخلُّ بتعظيمهما فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلَّة البشرية كانت في محل الغفران[١] ، وبمناسبة الإحسان إلى الوالدين يأمر تعالى بالإحسان إلى الأقارب والضعفاء والمساكين ﴿وآتِ ذا القربى حقَّه﴾ أي أعط كلَّ من له قرابة بك حقَّه من البر والإحسان ﴿والمسكينَ وابن السبيل﴾ أي وأعط المسكين المحتاج والغريبَ المنقطع في سفره حقَّه أيضاً ﴿ولا تبذّر تبذيراً﴾ أي لا تنفق مالكَ في غير طاعة الله فتكون مبذّراً ، والتبذير الإنفاق في غير حق قال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كلَّه في الحق لم يكن مبذّراً ، ولو أنفق مُدّاً في غير حق كان مبذّراً وقال قتادة : التبذير النفقة في معصية الله تعالى وفي غير الحق والفساد[٢] ﴿إن المبذّرين كانوا إخوان الشياطين﴾ هذا تعليل للنهي وهو غاية في الذم والتقبيح أي إن المبذرين كانوا أمثال الشياطين وأشباههم في الإفساد ، لأنهم ينفقون في الباطل وينفقون في الشر والمعصية فهم أمثالهم ﴿وكان الشيطانُ لربه كفوراً﴾ أي مبالغاً في كفران نعمة الله لا يؤدي حقَّ النعمة كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة ، وحقُّها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين ﴿وإمَّا تُعْرِضنَّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ أي إن أعرضتَ عن ذوي القربى والمساكين وابن السبيل إذا لم تجد ما تعطيهم فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعدْهم وعداً جميلاً ﴿ولا تجعلْ يدك مغلولةً إلى عنقك﴾ تمثيلٌ للبخل أي لا تكنْ بخيلاً منوعاً لا تعطي أحداً شيئاً كمن حبست يده عن الإنفاق وشدَّت إلى عنقه ﴿ولا تبسطها كلَّ البسط﴾ تمثيل للتبذير أي ولا تتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً بحيث لا يبقى في يدك شيء ، والغرض من الآية لا تكن بخيلاً ولا مسرفاً ﴿فتقعد ملوماً محسوراً﴾ أي فتصير مذموماً من الخَلْق والخالق ، منقطعاً من المال كمن انقطع في سفره بانقطاع مطيته ﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسّع الرزق على من يشاء ويضيّق على من يشاء ، وهو القابض ، الباسط المتصرف في خلقه ، بما يشاء حسب الحكمة ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ أي إنه عالم بمصالح العباد ، والتفاوتُ في الأرزاق ليس لأجل البخل بل لأجل رعاية المصالح فهو تعالى يعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشيةَ إملاق﴾ أي لا تُقدموا على قتل أولادكم مخافة الفقر ﴿نحن نرزقهم

(١) التفسير الكبير ٢٠/١٩٢ . (٢) المختصر ٢/ ٣٧٥ .

إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ

وإيّاكم﴾ أي رزقُهم علينا لا عليكم فنحن نرزقهم ونرزقكم فلا تخافوا الفقر بسببهم ﴿إنَّ قتلهم كان خِطْأً كبيراً﴾ أي قتلُهم ذنبٌ عظيم وجرمٌ خطير قال المفسرون : كان أهل الجاهلية يئدون البنات مخافة الفقر أو العار فنهاهم الله عن ذلك وضمن أرزاقهم ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ أي لا تدنوا من الزنى وهو أبلغ من «لا تزنوا» لأنه يفيد النهي عن مقدمات الزنى كاللَّمس ، والقُبلة ، والنظرة ، والغمز وغير ذلك مما يجرُّ إلى الزنى فالنهي عن القرب أبلغ من النهي عن الفعل ﴿إنه كان فاحشة﴾ أي إن الزنى كان فعلة قبيحة متناهية في القبح ﴿وساء سبيلاً﴾ أي ساء طريقاً موصلاً إلى جهنم ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق﴾ أي لا تقتلوا نفساً حرَّم الله قتلها بغير حقٍ شرعي موجبٍ للقتل كالمرتد ، والقاتل عمداً ، والزاني المحصن ﴿ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً﴾ أي ومن قُتل ظلماً بغير حقٍ يوجب قتله فقد جعلنا لوارثه سلطةً على القاتل بالقصاص منه ، أو أخذ الدية ، أو العفو ﴿فلا يسرفْ في القتل إنه كان منصوراً﴾ أي فلا يتجاوز الحدَّ المشروع بأن يقتل غير القاتل أو يمثِّل به أو يقتل اثنين بواحد كما كان أهل الجاهلية يفعلون ، فحسبُه أن الله قد نصره على خصمه فليكن عادلاً في قصاصه ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسن وهي حفظه واستثماره ﴿حتى يبلغ أشُدَّه﴾ أي حتى يبلغ اليتيم سن الرشد ويحسن التصرف في ماله ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً﴾ أي وفّوا بالعهود سواءً كانت مع الله أو مع الناس لأنكم تُسألون عنها يوم القيامة ﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم﴾ أي أتموا الكيل إذا كلتم لغيركم من غير تطفيفٍ ولا بَخْسٍ ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ أي زنوا بالميزان العدل السويِّ بلا احتيالٍ ولا خديعة ﴿ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾ أي وفاء الكيل وإقامة الوزن خيرٌ في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة ﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم﴾ أي لا تتَّبعْ ما لا تعلم ولا يَعْنيك بل تثبَّتْ من كل خبر ، قال قتادة : لا تقل رأيتُ ولم تر ، وسمعتُ ولم تسمع ، وعلمتُ ولم تعلم ، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله[1] ﴿إنَّ السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولاً﴾ أي إن الإنسان يُسأل يوم القيامة عن حواسه : عن سمعه ، وبصره ، وقلبه وعما اكتسبته جوارحه ﴿ولا تمش في الأرض مَرَحاً﴾ أي

(١) المختصر ٢/ ٣٧٧ .

﴿ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۝٣٩ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾

لا تمشِ في الأرض مختالاً مشية المعجب المتكبر ﴿إنك لن تَخْـرِق الأرضَ ولن تبلـغ الجبال طـولاً﴾ هذا تعليل للنهي عن التكبر والمعنى أنك أيها الإنسان ضئيل هزيل لا يليق بك التكبر ؟ كيف تتكبر على الأرض ولن تجعل فيها خرقاً أو شقاً ؟ وكيف تتطاول وتتعظَّمْ على الجبال ولن تبلغها طولاً ؟ فأنت أحقر وأضعف من كل واحدٍ من الجمادَيْن فكيف تتكبر وتتعالى وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال ؟ وفي هذا تهكم وتقريع للمتكبرين ﴿كلُّ ذلك كـان سيِّئه عند ربِّـكَ مكروهـاً﴾ أي كل ذلك المذكور الذي نهى الله عنه كان عمله قبيحاً ومحرماً عند الله تعالى ﴿ذلك مِمَّا أوحى إليـك ربك من الحكمـة﴾ أي ذلك الذي تقدم من الآداب والقصص والأحكام بعضُ الذي أوحاه إليك ربك يا محمد من المواعظ البليغة ، والحِكَم الفريدة ﴿ولا تجعلْ مع الله إلهاً آخر فتُلقى في جهنم ملوماً مدحـوراً﴾ أي لا تشرك مع الله غيره من وثنٍ أو بشر فتلقى في جهنم ملوماً تلوم نفسك ويلومك اللهُ والخلق مطروداً مبعداً من كل خير قال الصاوي : ختم به الأحكام كما ابتدأها إشارةً إلى أن التوحيد مبدأ الأمور ومنتهاها ، وهو رأس الأشياء وأساسُهـا ، والأعمالُ بدونه باطلةٌ لا تفيد شيئاً[١] ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنيـن واتخذ مـن الملائكة إناثـاً ؟﴾ خطابٌ على وجه التوبيخ للعرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله والمعنى أفخصكم ربـكم وأخلصـكم بالـذكور واختـار لنفسـه ـ على زعمكـم ـ البنات ؟ كيف يجعل لكم الأعلى من النسل ويختار لنفسه الأدنـى ! ﴿إنـكم لتقولـون قـولاً عظيمـاً﴾ أي إنكم لتقولون قولاً عظيماً في شناعته وبشاعته حيث تنسبون إليه البنـات وتجعلـون للـه ما تكرهون ﴿ولقد صرَّفْنـا في هذا القـرآن ليذَّكَّروا﴾ أي ولقد بينّا للنـاس في هذا القـرآن العـظيم الأمثـال والمواعظ ، والوعد والوعيد ، ليتذكروا بما فيه من الحجج النيِّرة والبراهين الساطعة ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والضلال ﴿وما يزيدهـم إلا نفـوراً﴾ أي وما يزيدهم هذا البيان والتذكير إلا تباعداً عن الحق ، وغفلةً عن النظر والاعتبار ﴿قل لو كـان معه آلهـةٌ كما يقولون إذاً لابتغـوا إلى ذي العَـرْش سبيلاً﴾ أي لو فرضنا أن مع الله آلهة أخرى كما يزعم هؤلاء المشركون إذاً لطلبوا طريقاً إلى مغالبة ذي العزة والجـلال ليسلبوا ملكه كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض[٢] ﴿سبحانـه وتعالى عما يقولـون علواً كبيـراً﴾ أي تنزَّه

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٥٠.

(٢) هذا أحد وجهين في تفسير الآية الكريمة والوجه الآخر أن المعنى : لو كان الأمر كما تقولون لكان أولئك المعبودون يبتغون سبيلاً إلى التقرب إليه بعبادته وطاعته ويطلبون الزلفى لديه ، وهذا اختيار ابن جرير وابن كثير ، والوجه الأول أظهر كما يقول العلامة أبو السعود وهو المناسب للآية لقوله تعالى بعدها ﴿سبحانه﴾ فإنه صريح في الإنكار وأن قولهم فيه محذور عظيم .

عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ

تعالى وتقدَّس عما يقول أولئك الظالمون ، وتعالى ربنا عما نسبوه إليه من الزور والبهتان تعالياً كبيراً ، فإن مثل هذه الفرية مما يتنزّه عنه مقامه الأسمى قال الشهاب : وذكر العلُوّ بعد عنوانه بـ ﴿ذي العرش﴾ في أعلى مراتب البلاغة لأنه المناسب للعظمة والجلال ﴿تسبّح له السموات السبعُ والأرضُ ومَنْ فيهن﴾ أي تسبح له الكائنات ، وتنزهه وتقدسه الأرض والسموات ، ومن فيهن من المخلوقات ﴿وإنْ من شيءٍ إلا يسبح بحمده﴾ أي وما من شيء في هذا الوجود إلا ناطق بعظمة الله ، شاهد بوحدانيته جلَّ وعلا[1] ، السمواتُ تسبّح الله في زرقتها ، والحقولُ في خضرتها ، والبساتينُ في نضرتها ، والأشجار في حفيفها ، والمياهُ في خريرها ، والطيورُ في تغريدها ، والشمسُ في شروقها وغروبها ، والسحبُ في إمطارها ، والكل شاهد بالوحدانية للّه .

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدُ

﴿ولكنْ لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي ولكنْ لا تفهمون تسبيح هذه الأشياء لأنها ليست بلغاتكم ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ أي إنه تعالى حليم بالعباد لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، غفورٌ لمن تاب وأناب ، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيزٍ مقتدر ﴿وإذا قرأتَ القرآن جعلنا بينكَ وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾ أي وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدّقون بالآخرة جعلنا بينك وبينهم حجاباً خفياً يحجب عنهم فهم القرآن وإدراك أسراره وحِكمه ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنَّةً أن يفقهوه﴾ أي وجعلنا على قلوب هؤلاء الكفار أغطيةً لئلا يفهموا القرآن ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي صمماً يمنعهم من استماعه ﴿وإذا ذكرتَ ربَّك في القرآنِ وحده ولَّوْا على أدْبارهم نفوراً﴾ أي وإذا وحَّدت الله وأنت تتلو القرآن فرَّ المشركون من ذلك هرباً من استماع التوحيد ﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ أي نحن أعلم بالغاية التي يستمعون من أجلها للقرآن وهي الاستهزاء والسخرية قال المفسرون : كان المشركون يجلسون عند النبي ﷺ مظهرين الاستماع وفي الواقع قاصدين الاستهزاء فنزلت الآية تسلية للرسول ﷺ وتهديداً للمشركين ﴿إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى﴾ أي حين يستمعون إلى قراءتك يا محمد ثم

(١) قال في الظلال : « وإنه لمشهد كوني فريد حين يتصور القلب كلَّ حصاةٍ وكلَّ حجر ، كلَّ حبةٍ وكل ورقة ، كلَّ زهرة وكل ثمرة ، كلَّ نبتةٍ وكل شجرة ، كل حشرة وكل زاحفة ، كل حيوان وكل إنسان ، كل دابة على الأرض ، وكل سابحةٍ في الماء والهواء ومعها سكان السماء ، كلُّها تسبّح الله وتتوجه إليه في علاه ، وحين تشف الروح وتصفو تدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون » . الظلال ١٥/ ٣٩.

إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

يتناجون ويتحدثون بينهم سراً ﴿إذ يقول الظالمون إنْ تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾ أي حين يقول أولئك الفجرة ما تتبعون إلا رجلاً سُحر فجُنَّ فاختلط كلامه ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا﴾ أي انظر يا محمد وتعجَّبْ كيف يقولون تارة عنك إنك ساحر ، وتارة إنك شاعر ، وتارة إنك مجنون ! وقد ضلوا بهذا البهتان والزور ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ أي لا يجدون طريقاً إلى الهدى والحق المبين .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ - الاستعارة المكنية ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ شبَّه الذل بطائر له جناح وحذف الطائر ورمز له بشيء من لوازمه وهو الجناح على سبيل الاستعارة المكنية .

٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ مثَّل للبخيل بالذي حبست يده عن الإعطاء وشدت إلى عنقه بحيث لا يقدر على مدها ، وشبَّه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئاً .

٣ - اللف والنشر المرتب ﴿فتقعد ملوماً محسوراً﴾ عاد لفظ ﴿ملوماً﴾ إلى البخل ولفظ ﴿محسوراً﴾ إلى الإسراف أي يلومك الناس إن بخلت ، وتصبح مقطوعاً إن أسرفت .

٤ - الطباق بين ﴿يبسط . . ويقدر﴾ .

٥ - جناس الاشتقاق ﴿ قرأتَ القرآن﴾ .

٦ - التوبيخ ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾ ؟ .

٧ - الفرض والتقدير ﴿لو كان معه آلهة كما يقولون﴾ .

لَطِيفَـة : نقف هنا أمام مثلٍ من دقائق التعبير القرآني العجيبة ففي هذه السورة قدَّم تعالى رزق الأبناء على رزق الآباء ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾ وفي سورة الأنعام قدَّم رزق الآباء ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ والسرُّ في ذلك أن قتل الأولاد هنا كان خشية وقوع الفقر بسببهم فقدَّم تعالى رزق الأولاد ، وفي الأنعام كان قتلهم بسبب فقر الآباء فعلاً فقدم رزق الآباء ، فللّه در التنزيل ما أروع أسراره !

* * *

قال الله تعالى : وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً . . إلى . . ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾ من آية (٤٩) إلى نهاية آية (٦٩) .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى موقف المشركين من القرآن العظيم ، وذكر تعاميهم عن فهم آياته البينات ، أردفه بذكر شبهاتهم في إنكار البعث والنشور وكرَّ عليها بالإبطال والتفنيد ، ثم ذكر قصة آدم وإبليس للعظة والاعتبار ، وأعقبها بذكر نعمه العظيمة على العباد ثم بالوعيد والتهديد إن أصرّوا على الكفر والجحود .

اللغَة : ﴿رفاتاً﴾ الرُّفات : ما تكسَّر وبَلِيَ من كل شيء كالفُتات والحُطام والرُّضاض ﴿يُنْغضون﴾قال الفراء : يقال أنغض فلانٌ رأسه إذا حركه إلى فوق وأسفل كالمتعجب من الشيء[1] قال الراجز : « أنْغَض نحوي رأسه وأقنعا » ﴿ينزغ﴾ يفسد ويهيِّج الشر والنزغُ : الإفسادُ والإغراء ﴿لأحتنكنَّ﴾ الاحتناك الأخذ بالكليَّةِ والاستئصال يقال : احتنك الجرادُ الزرعَ إذا ذهب به كلِّه ﴿واستفزز﴾ اخدعْ واستخفَّ يقال : أفزَّه الخوف واستفزَّه إذا أزعجه واستخفَّه ﴿وأجْلب﴾ أصل الإجلاب السوقُ بجلبَةٍ من السائق وهو الصياح ، والجَلَب والجَلَبَةُ الأصوات ﴿ورَجِلِك﴾ الرَّجِلُ جمع راجل وهو الذي يمشي على قدميه ﴿يُزْجي﴾ يسوق ﴿حاصباً﴾ الحاصب والحصباء هي الحَصَى الصغار ﴿قاصفاً﴾ القاصف ما يقصف الشيء أي يكسره والريح الشديدة التي تكسر بشدة من قصف الشيء يقصفه أي كسره بشدة ، ورعد قاصف شديد الصوت ﴿تبيعاً﴾ طالباً يقال تابع وتبيع وهو النصير والمطالب .

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن ابن عباس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أنْ يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن يُنحِّيَ عنهم الجبال فيزرعوا فقيل له : إن شئتَ أن تستأني بهم لعلنا نجتبي منهم ، وإن شئتَ نعطيهم الذي سألوا فإن كفروا أُهلكوا ، فقال : لا بل أستأني بهم فنزلت ﴿وما منعنا أن نُرسل بالآياتِ إلا أنْ كذَّبَ بها الأولون . . ﴾[2] الآية .

ب ـ لما ذكر تعالى شجرة الزقوم في القرآن قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمداً يخوِّفكم بشجرة الزقوم ، ألستم تعلمون أن النار تُحرق الشجر ؟ ومحمد يزعم أن النار تُنْبت الشجر ، فهل تدرون ما الزقوم ؟ هو التمر والزُّبد ، يا جارية ابغينا تمراً وزُبداً ، فجاءته به فقال : تزقَّموا من هذا الذي يخوِّفكم به محمد فأنزل الله تعالى ﴿والشجرةَ الملعونةَ في القرآن ونخوِّفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾[3] .

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾

التفسِير : ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً ورُفاتاً﴾ استفهام تعجب وإنكار أي قالَ المشركون المكذبون بالبعث أئذا أصبحنا عظاماً نخرة ، وذراتٍ متفتتة كالتراب ﴿أئنا لمبعوثون خَلْقاً جديداً﴾ أي هل سنُبعث ونُخْلق خلقاً جديداً بعد أن نبلى ونفنى ؟ ﴿قل كونوا حجارةً أو حديداً﴾ أي قل لهم يا محمد لو كنتم حجارةً

(١) التفسير الكبير ٢٠/٢٢٦ . (٢) أسباب النزول للواحدي ص ١٦٦ . (٣) زاد المسير ٥/٥٥ .

أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ

أو حديداً لقدر الله على بعثكم وإحيائكم فضلاً عن أن تكونوا عظاماً ورفاتاً فإن الله لا يعجزه شيء ، فالحجارة والحديد أبعد عن الحياة وهي أصلب الأشياء ولو كانت أجسامكم منها لأعادها الله فكيف لا يقدر على إعادتكم إذا كنتم عظاماً ورفاتاً ؟ ﴿أو خَلْقاً مما يكبُر في صدوركم﴾ أي أو كونوا خلقاً آخر أوغل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يصعب في نفوسكم تصوُّرُ الحياة فيه فسيبعثكم الله قال مجاهد : المعنى كونوا ما شئتم فستعادون ﴿فسيقولون من يعيدنا﴾ ؟ أي من الذي يردنا إلى الحياة بعد فنائنا ﴿قل الذي فطركم أولَ مرة﴾ أي قل لهم يعيدكم القادر العظيم الذي خلقكم وأنشأكم من العدم أول مرة ﴿فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو﴾ ؟ أي يحركون رءوسهم متعجبين مستهزئين ويقولون استنكاراً واستبعاداً متى يكون البعث والإعادة ؟ ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ أي لعله يكون قريباً فإن كلَّ ما هو آتٍ قريب ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ أي سيكون بعثكم يوم الحشر الأكبر يوم يدعوكم الرب جل وعلا للاجتماع في المحشر فتجيبون لأمره ، وتظنون لهوْل ما ترون أنكم ما أقمتم في الدنيا إلا زمناً قليلاً ﴿وقلْ لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ أي قل لعبادي المؤمنين يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلمة الطيبة ويختاروا من الكلام ألطفه وأحسنه وينطقوا دائماً بالحسنى ﴿إن الشيطان ينزَغ بينهم﴾ أي إن الشيطان يُفسد ويُهيج بين الناس الشرَّ ويُشعل نار الفتنة بالكلمة الخشنة يُفلت بها اللسان ﴿إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾ أي ظاهر العداوة للإنسان من قديم الزمان يتلمس سقطَات لسانه ليُحْدث العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه ﴿ربكُمْ أعْلَمُ بكم إنْ يَشَأْ يرحَمْكُم أو إنْ يَشَأْ يعذبْكم﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بدخائل نفوسكم إن يشأ يرحمكم بالتوفيق للإيمان ، وإن يشأ يعذبكم بالإماتة على الكفر والعصيان ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾ أي وما جعلناك يا محمد حفيظاً على أعمال الكفار كفيلاً عنهم لتقسرهم على الإيمان إنما أرسلناك نذيراً فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار ﴿وربك أعلمُ بمن في السموات والأرض﴾ إنتقالٌ من الخصوص إلى العموم أي ربك جلَّ وعلا أعلمُ بعباده بأحوالهم ومقاديرهم فيخص بالنبوة من شاء من خلقه ، وهو أعلم بالسعداء والأشقياء ، والآية ردٌّ على المشركين حيث استبعدوا النبوة على رسول الله وقالوا : كيف يكون يتيم أبي طالب نبياً ؟ وكيف يكون هؤلاء الفقراء الضعفاء أصحابه دون الأكابر والرؤساء ؟ ﴿ولقد فضّلْنا بعض النبيّين على بعض﴾ أي فضلنا بعض الأنبياء على بعض حسب علمنا وحكمتنا وخصصناهم بمزايا فريدة ، فاصطفينا إبراهيم

﴿بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾﴾

بالخُلَّة ، وموسى بالتكليم ، وسليمان بالمُلْك العظيم ، ومحمداً بالإسراء والمعراج وجعلناه سيِّد الأولين والآخرين ، وكلٌّ ذلك فعل الحكيم العليم الذي لا يصدر شيءٌ إلا عن حكمته ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ أي وأنزلنا الزبور على داود المشتمل على الحكمةِ وفصلِ الخطاب ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أدعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه تعالى قال الحسن : يعني الملائكة وعيسى وعزيراً فقد كانوا يقولون إنهم يشفعون لنا عند الله ﴿فلا يملكون كشفَ الضُّر عنكم ولا تحويلاً﴾ أي فلا يستطيعون رفع البلاء عنكم ولا تحويله إلى غيركم ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب﴾ أي أولئك الآلهة الذين يدعونهم من دون الله هم أنفسهم يبتغون القرب إلى الله ، ويتوسلون إليه بالطاعة والعبادة ، فكيف تعبدونهم معه ؟ ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾ أي يرجون بعبادتهم رحمته تعالى ويخافون عقابة ويتسابقون إلى رضاه ﴿إنَّ عذابَ ربك كان محذوراً﴾ أي عذابه تعالى شديد ينبغي أن يُحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله ﴿وإنْ من قريةٍ إلاّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً﴾ أي ما من قريةٍ من القرى الكافرة التي عصتْ أمر الله وكذَّبتْ رسله إلا وسيهلكها الله إما بالاستئصال الكلي أو بالعذاب الشديد لأهلها ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ أي كان ذلك حكماً مسطراً في اللوح المحفوظ لا يتغيَّر ﴿وما منعنَا أنْ نُرسلَ بالآياتِ إلا أنْ كذَّب بها الأولون﴾ قال المفسرون : اقترح المشركون على رسول الله ﷺ معجزاتٍ عظيمة منها أن يقلب لهم الصفا ذهباً ، وأن يزيح عنهم الجبال فأخبره تعالى أنه إن أجابهم إلى ما طلبوا ثم لم يؤمنوا استحقوا عذاب الاستئصال ، وقد اقتضت حكمته تعالى إمهالهم لأنه علم أنَّ منهم من يؤمن وأن من أولادهم من يؤمن فلهذا السبب ما أجابهم إلى ما طلبوا[1] أو المعنى ما منعنا من إرسال المعجزات والخوارق التي اقترحها قومك إلاّ تكذيبُ مَنْ سبقهم من الأمم حيث اقترحوا ثم كذبوا فأهلكهم الله ودمَّرهم ﴿وآتينا ثمودَ الناقة مبصرةً فظلموا بها﴾ أي وأعطينا قوم صالح الناقة آيةً بينة ومعجزةً ساطعة واضحة فكفروا بها وجحدوا بعد أن سألوها فأهلكهم الله ﴿وما نُرسل بالآياتِ إلا تخويفاً﴾ أي وما نرسل بالآيات الكونية كالزلازل والرعد والخسوف والكسوف إلا تخويفاً للعباد

(١) انظر سبب النزول المذكور سابقاً .

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ

من المعاصي قال قتادة : إن الله تعالى يخوّف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويرجعون[١] ﴿وإذ قلنا لك إنّ ربك أحاط بالنـاس﴾ أي واذكر يا محمد حين أخبرناك أن الله أحـاط بالنـاس علماً في الماضي والحاضر والمستقبل فهو تعالى لا يخفى عليه شيءٌ من أحوالهم وقد علم أنهم لن يؤمنوا ولو جئتهم بما طلبوا من الآيات والمعجزات ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للنـاس﴾ أي وما جعلنا الرؤية التي أريناكها عياناً ليلة المعراج من عجائب الأرض والسماء إلا امتحاناً وابتلاءً لأهل مكة حيث كذبوا وكفروا وارتـد بعض الناس لما أخبرهم بها قال البخاري عن ابن عباس : هي رؤيا عينٍ أُريها رسولُ الله ﷺ ليلةَ أُسريَ به وليست برؤيا منام[٢] ﴿والشجـرةَ الملعونةَ في القـرآن﴾ أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن وهي شجرة الزقوم إلا فتنةً أيضاً للناس قال ابن كثير : لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم كذبوا بذلك حتى قال أبو جهل متهكماً : هاتوا لنا تمراً وزُبْداً وجعـل يأكل من هذا بهـذا ويقول : تزقّمـوا فلا نعلم الزقوم غير هذا[٣] ﴿ونخوفهم فما يزيـدهم إلا طغيانـاً كبيراً﴾ أي ونخوّف هؤلاء المشركيـن بأنـواع العـذاب والآيات الزاجـرة فما يزيدهم تخويفنا إلا تمادياً وغياً واستمراراً على الكفر والضلال ، فماذا تنفع معهم الخوارق ؟ ما زادتهم خارقة الإسراء والمعراج ، ولا خارقة التخويف بشجرة الزقوم إلا استهزاءً وإمعاناً في الضلال ، ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان سببه إغواء الشيطان ولهذا ذكر قصته عقب ذلك فقال ﴿وإذ قلنـا للملائكة اسجـدوا لآدم فسجدوا إلا إبليـس﴾ أي أذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم فسجدوا كلهم إلا ابليس استكبر وأبى افتخاراً على آدم واحتقاراً له ﴿قال أأسجـدُ لمن خلقـتَ طيناً﴾ استفهامٌ إنكاري أي أأسجد أنا العظيم الكبير لهذا الضعيف الحقير الذي خلقته من الطين ؟ كيف يصح للعالي أن يسجد للداني ؟ ﴿قال أرأيتـكَ هذا الذي كرّمـتَ عليّ﴾ أي قال إبليس اللعين جراءةً على الربّ وكفراً به : أتُرى هذا المخلوق الذي فضّلته عليّ وجعلتَه أكرَم مني عندك ؟ ﴿لئن أخرتـنِ إلى يومِ القيامـة لأحتنكنّ ذريتـه إلا قليلاً﴾ أي لئن أنظرتني وأبقيتني حياً إلى يوم القيامة لأستأصلنّ ذريته بالإغواء والإضلال قال الطبري : أقسم عدوُّ الله فقال لربه : لئن أخرتَ إهلاكي إلى يوم القيامة لأستأصلنَّهم ولأستميلنَّهمَ وأضلنَّهم إلا قليلاً منهم[٤] ﴿قال اذهبْ فمـنْ تَبِعـكَ منهـم فإن جهنـم جزاؤكم جـزاءً موفوراً﴾ أي قال الرب جلّ وعلا : إذهب فقد أنظرتُك وابذل جهدك فيهم فمن أطاعك من

(١) الطبري ١٥/ ١٠٩ . (٢) الطبري ١٥/ ١١٠ . (٣) المختصر ٢/ ٣٨٦ .
(٤) الطبري ١٥/ ١١٦ والمراد بالقليل: المخلصون الذين عصمهم الله .

﴿ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾

ذرية آدم فإن جزاءك وجزاءهم نارُ جهنم جزاء كاملاً وافراً لا ينقص لكم منه شيء قال القرطبي : والأمر في ﴿اذهبْ﴾ أمرُ إهانة والمعنى اجهد جهدك فقد أنظرناك[1] ﴿واستفْزِزْ من استطعتَ منهم بصوتِك﴾ أي استخفف واستجهل وحرِّكْ من أردتَ أن تستفزَّه فتخدعه بدعائك إلى الفساد قال ابن عباس : صوتُه كلُّ داعٍ يدعو إلى معصية الله تعالى وقال مجاهد : صوته الغناء والمزامير واللهو[2] ﴿وأَجْلِبْ عليهمْ بخيلِكَ ورَجِلِك﴾ أي صِحْ عليهم بأعوانك وجنودك من كل راكبٍ وراجل قال الطبري : المعنى اجمع عليهم من ركبان جندك ومشاتهم من يصيح عليهم بالدعاء إلى طاعتك ، والصرفِ عن طاعتي قال ابن عباس : خيلُه ورَجِله كلُّ راكبٍ وماشٍ في معصية الله تعالى[3] وقال الزمخشري : الكلام واردٌ مورد التمثيل ، مُثِّلَتْ حالُه في تسلطه على من يُغويه بفارسٍ مغوار أوقع على قومٍ فصوَّت بهم صوتاً يستفزهم عن أماكنهم ، ويُقلقهم عن مراكزهم ، وأجلبَ عليهم بجنده من خيَّالةٍ ورجَّالة حتى استأصلهم[4] ﴿وشارِكْهُمْ في الأموالِ والأولاد﴾ أي اجعل لنفسك شركة في أموالهم وأولادهم ، أما الأموال فبكسبها من الحرام وإنفاقها في المعاصي ، وأما الأولاد فبتحسين اختلاط الرجال بالنساء حتى يكثر الفجور ويكثر أولاد الزنى ﴿وَعِدْهُمْ وما يعدُهُم الشيطانُ إلا غروراً﴾ أي عدْهم بالوعود المغرية الخادعة والأماني الكاذبة ، كالوعد بشفاعة الأصنام ، والوعد بالغِنى من المال الحرام ، والوعد بالعفو والمغفرة وسَعَة رحمة الله ، والوعد باللذة والسرور في ارتكاب الموبقات كقول الشاعر :

خذوا بنصيبٍ من سرورٍ ولذةٍ فكلٌ وإن طال المدى يتصرَّم

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي إنَّ عبادي المخلصين ليس لك عليهم تسلطٌ بالإغواء لأنهم في حفظي وأماني ﴿وكفى بربك وكيلاً﴾ أي كفى بالله تعالى عاصماً وحافظاً لهم من كيدك وشرك ، ثم ذكَّر تعالى العباد بإحسانه ونعمه عليهم وبآثار قدرته ووحدانيته فقال ﴿ربكم الذي يُزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله﴾ أي ربكم أيها الناس هو الذي يُسيِّر لكم السفن في البحر لتطلبوا من رزقه في أسفاركم وتجاراتكم ﴿إنه كان بكم رحيماً﴾ أي هو تعالى رحيم بالعباد ولهذا سهَّل لهم أسباب ذلك ﴿وإذا مسَّكم الضُّر في البحر ضلَّ من تدعون إلا إياه﴾ أي وإذا أصابتكم الشدة والكرب في البحر وخشيتم من الغَرَق ذهب

(١) القرطبي ١٠/ ٢٨٨ . (٢) القرطبي ١٠/ ٢٨٨ . (٣) الطبري ١٥/ ١١٨ . (٤) الكشاف ٢/ ٦٧٨ . ويقول سيد قطب في الظلال : « إنه تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة ، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول ، فهي المعركة الصاخبة تُستخدم فيها الأصوات والخيل والرجال على طريقة المعارك والمبارزات ، يرسل فيها الصوتُ فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبَّرة ، فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل ، وأحاطت بهم الرجال » الظلال ١٥/ ٥١ .

إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

عن خاطركم من كنتم تعبدونه من الآلهة ولم تجدوا غير الله مغيثاً يغيثكم ، فالإنسان في تلك الحالة لا يتضرع إلى الصنم والوثن ، والمَلَك والفَلَك وإنما يتضرع إلى الله تعالى ﴿فلما نجّاكم إلى البَرِّ أعرضتم﴾ أي فلما نجاكم من الغرق وأخرجكم إلى البرِّ أعرضتم عن الإيمان والإخلاص ﴿وكان الإنسان كفوراً﴾ أي ومن طبيعة الإنسان جحود نعم الرحمن ، ثم خوَّفهم تعالى بقدرته العظيمة فقال ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البَرِّ﴾ أي أفأمنتم أيها الناس حين نجوتم من الغرق في البحر أن يخسف الله بكم الأرض فيخفيكم في باطنها ؟ إنكم في قبضة الله في كل لحظة فكيف تأمنون بطش الله وانتقامه بزلزالٍ أو رجفةٍ أو بركان ؟ ﴿أويرسل عليكم حاصباً﴾ أي يمطركم بحجارة من السماء تقتلكم كما فعل بقوم لوط ﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾ أي لا تجدوا من يقوم بأموركم ويحفظكم من عذابه تعالى ﴿أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى﴾ أي يعيدكم في البحر مرةً أخرى ﴿فيرسل عليكم قاصفاً من الريح﴾ أي يرسل عليكم وأنتم في البحر ريحاً شديدة مدمِّرة ، لا تَمرُّ بشيءٍ إلا كسرته ودمَّرته ﴿فيغرقكم بما كفرتم﴾ أي يغرقكم بسبب كفركم ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾ أي لا تجدوا من يأخذ لكم بالثأر منا أو يطالبنا بتبعة إغراقكم .

البَــلاَغَــة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الاستفهام الإنكاري ﴿أئذا كنا عظاماً﴾ وتكرير الهمزة في ﴿أئنا لمبعوثون﴾ لتأكيد النكير وكذلك تأكيده بإنَّ واللام للإشارة إلى قوة الإنكار .

٢ ـ التعجيز والإهانة في الأمر ﴿قل كونوا حجارةً أو حديداً﴾ .

٣ ـ الطباق بين ﴿يرحمكم . . . ويعذبكم﴾ وبين لفظ ﴿البر . . والبحر﴾ .

٤ ـ الإيجاز بالحذف ﴿ولا تحويلاً﴾ أي ولا تحويل الضر عنكم حُذف لدلالة ما سبق .

٥ ـ المقابلة اللطيفة بين الجملتين ﴿يرجون رحمته﴾ ، ﴿ويخافون عذابه﴾ .

٦ ـ الإسناد المجازي ﴿وما منعنا أن نُرسل بالآيات﴾ المنع محالٌ في حقه تعالى لأن الله لا يمنعه عن إرادته شيء فالمنع مجاز عن الترك أي ما كان سبب ترك إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين .

٧ ـ المجاز العقلي ﴿الناقةَ مبصرةً﴾ لما كانت الناقة سبباً في إبصار الحق والهدى نسب إليها الإبصار ففيه مجاز عقلي علاقته السببية .

٨ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿وأَجْلِبْ عليهم بخيلـك ورجلك﴾ مُثِّلَتْ حال الشيطان في تسلطه على من يغويه بالفارس الذي يصيح بجنده للهجوم على الأعداء لاستئصالهم .

٩ ـ التذييل ﴿إنه كان بكم رحيماً﴾ لأنه كالتعليل لما سبق من تسيير السفن وتسخيرها في البحر .

تنبيـه : الغالب في لفظ ﴿الرؤيـا﴾ أن تكون منامية وإذا كانت بالعين يقال ﴿رؤية ﴾ بالتاء ، وقوله تعالى ﴿وما جعلنا الرؤيـا التي أريناك إلا فتنةً للناس﴾ جاءت على غير الغالب لأن المراد بها الرؤيـة البصرية التي رآها رسول الله ﷺ في الإسراء والمعراج وقد تقدم قول ابن عباس : «هي رؤيـا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به » ولو كانت رؤيـا منام لما كانت فتنةً للناس ولما ارتد بعضهم عن الاسلام .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد كرمنـا بني آدم وحملناهم في البر والبحر . . إلى . . فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ من آية (٧٠) إلى نهاية آية (٨٩) .

المناسبة : لما ذكر تعالى ما امتنَّ به على الناس من تسيير السفن في البحر ، ومن تنجيتهـم من الغرق، تمّم ذكر المنَّة بما أنعم به على النوع الإنساني من تكرمتهم ، ورزقهم ، وتفضيلهـم على سائـر المخلوقات ، ثم ذكر أحوال الناس ودرجاتهم في الآخرة ، ثم حذَّر الرسول ﷺ من اتباع أهواء المشركين .

اللغة : ﴿بإمامهم﴾ الإمام في اللغة : كل من يأتـم به غـيره سواء كان على هدى أو ضلال ويطلق الإمام على كتاب الأعمال لأن الإنسان يكون تابعاً لكتاب أعماله يقوده إلى الجنة أو النار ﴿فتيلاً﴾ الفتيل : القشرة التي في شق النواة ويضرب مثلاً للشيء الحقير التافه ومثله القطمير والنقير ﴿تركن﴾ تميل ﴿ليستفزونك﴾ الاستفـزاز : الإزعـاج بسبـب من الأسبـاب للحمـل على الخـروج من الوطـن وغـيره ﴿وتحويلاً﴾ تغييراً وتبديلاً ﴿لدلوك﴾ الدلوك : الغروب يقال دلكت الشمس أي غابت قال أبو عبيد وابن قتيبة : الدلوك الغروب وأنشد لذي الرمة :

مصـابيحُ ليسـتْ باللواتـي تقودها نجـومٌ ولا بالآفـلات الدَّوالكِ

وقال الأزهري : أصل الدلوك الميل يقال : مالت الشمس للزوال ، ومالت للغروب ﴿غَسَق﴾ غسَقُ الليل : سواده وظلمته يقال : غسق الليل إذا اشتـدت ظلمتـه ﴿فتهجـد﴾ التهجد : صلاة الليل بعـد الاستيقاظ من النوم ، والهجودُ : النوم ،قال الشاعر :

أَلاَ طَرَقَتْنَا والرِّفَاقُ هُجُود فباتَتْ بعَلاَّتِ النَّوَال تجُود[1]

﴿زهق﴾ زال وبطل ﴿نأى﴾ تباعد والنأي : البُعد ﴿ظهيراً﴾ مُعيناً ونَصيراً .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ! فقالوا : سلوه عن الروح فأنزل الله ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي . .﴾[2] الآية .

* ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟﴾

التفسير : ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ أي لقد شرفنا ذرية آدم على جميع المخلوقات بالعقل ، والعلم ، والنطق ، وتسخير جميع ما في الكون لهم ﴿وحملناهم في البرّ والبحر﴾ أي وحملناهم على ظهور الدواب والسفن ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي من لذيذ المطاعم والمشارب قال مقاتل :السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى وجعلنا رزق الحيوان التبن والعظام وغيرها ﴿وفضلناهم على كثيرٍ ممَّنْ خلقنا تفضيلاً﴾ أي وفضلناهم على جميع من خلقنا من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات من الجن والبهائم والدواب والوحش والطير وغير ذلك ﴿يوم ندعو كلَّ أناسٍ بإمامهم﴾ أي اذكر يوم الحشر حين ننادي كل إنسان بكتاب عمله ليسلَّم له وينال جزاءه ، والإمام الكتاب الذي سجل فيه عمل الإنسان ويقوّيه ﴿وكلَّ شيءٍ أحصيناه في إمامٍ مبين﴾ قال ابن عباس : الإمام ما عُمل وأُملي فكتب عليه ، فمن بُعث متقياً لله جُعل كتابُه بيمينه فقرأه واستبشر[3] ﴿فمن أُوتي كتابه بيمينه﴾ أي فمن أُعطي كتاب عمله بيمينه وهم السعداء أولو البصائر والنُّهى المتقون للّه ﴿فأولئك يقرءون كتابهم﴾ أي يقرءون حسناتهم بفرح واستبشار لأنهم أخذوا كتبهم بأيمانهم ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ أي ولا يُنقصون من أجور أعمالهم شيئاً ولو كان بمقدار الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾ أي ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب ، لا يهتدي إلى الحق ولا إلى الخير ﴿فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً﴾ أي فهو في الآخرة أشدُّ عمىً وأشدُّ ضلالاً[4] عن طريق السعادة والنجاة قال قتادة : من كان في هذه الدنيا أعمى عمّا عايَنَ من نعم الله وخلقه

---

(١) القرطبي ١٠/٣٠٨ . (٢) أسباب النزول للواحدي ص ١٦٨ . (٣) الطبري ١٥/١٢٦ وهذا ما رجحه ابن كثير وقيل : إمام هدى أو إمام ضلالة وقيل : نبيهم . (٤) هذا كله من عمى القلب وقيل المراد أنه يحشر يوم القيامة أعمى البصر لقوله تعالى ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمياً وبُكماً وصُماً . .﴾ الآية .

لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ

وعجائبه ، فهو فيما يغيب عنه من أمر الآخرة أشد عمى وأضلُّ طريقاً ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك﴾ أي وإن كان الحال والشأن أن المشركين قاربوا أن يصرفوك عن الذي أوحيناه إليك يا محمد من بعض الأوامر والنواهي ﴿لتفتري علينا غيره﴾ أي لتأتي بغير ما أوحاه الله إليك وتخالف تعاليمه ﴿وإذاً لاتخذوك خليلاً﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك صاحباً وصديقاً قال المفسرون : حاول المشركون محاولات كثيرة ليثنوا رسول الله ﷺ عن المضي في دعوته منها : مساومتهم له أن يعبدوا إلهه مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم ، ومنها مساومة بعضهم أن يجعل أرضهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرَّمه الله ، ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء ، فعصمه الله من شرهم وأخبر أنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره[1] ﴿ولولا أن ثبتناك﴾ أي لولا أن ثبتناك على الحق بعصمتنا إياك ﴿لقد كدتَ تركَنُ إليهم شيئاً قليلاً﴾ أي كدت تميل إليهم وتسايرهم على ما طلبوا ﴿إذاً لأذقناك ضعف الحياةِ وضعفَ المماتِ﴾ أي لو ركَنْتَ إليهم لضاعفنا لك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، لأن الذنب من العظيم جرمٌ كبير يستحق مضاعفة العذاب ، والغرضُ من الآية بيانُ فضل الله على الرسول في تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولو تخلَّى عن عصمتِه لمالَ إليهم بعض الشيء و ﴿لولا﴾ حرف امتناع لوجود أي امتنع الركون إليهم لعصمته تعالى وتثبيته له ، فليس في الآية ما يُنقص من قدر الرسول ﷺ وإنما هي بيان لفضل الله العظيم على نبيه الكريم ﴿ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ أي لا تجد من ينصرك منا أو يدفع عنك عذابنا ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها﴾ أي وإن كاد المشركون بمكرهم وإزعاجهم أن يخرجوك يا محمد من أرض مكة ﴿وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً﴾ أي لو أخرجوك لم يلبثوا بعد خروجك إلا زمناً يسيراً وفق سنة الله التي لا تتبدل مع الذين يخرجون رسلهم من أوطانهم قال قتادة : همَّ أهلُ مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا ولكنَّ الله تعالى منعهم من إخراجه حتى أمره بالخروج[2] ﴿سُنَّة من قد أرسلنا قبلَكَ من رسلِنَا﴾ أي هذه عادة الله مع رسله في إهلاك كل أمةٍ أَخرجتْ رسولَها من بين أظهرهم ﴿ولا تجدُ لسنَّتِنَا تحويلاً﴾ أي لن تجد لها تبديلاً أو تغييراً ﴿أقم الصلاةَ لدلوك الشمس إلى غَسَق الليل﴾ أي حافظ يا محمد على الصلاة في أوقاتها من وقت زوال

(١) قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ معصوماً ، ولكنْ هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه . القرطبي ١٠/ ٣٠٠

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢١/ ٢٣

ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ

الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل ﴿وقرآن الفجر﴾ أي وأقم صلاة الفجر ، وإنما عبَّر عنها بقرآن الفجر لأنه تطلب إطالة القراءة فيها ﴿إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ أي تشهده ملائكة الليل والنهار كما في الحديث (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر ، وصلاة الفجر . .) الحديث،قال المفسرون : في الآية الكريمة إشارة إلى الصلوات المفروضة ، فدلوكُ الشمس زوالُها وهو إشارة إلى الظهر والعصر ، وغَسَقُ الليل ظلمتُه وهو إشارة إلى المغرب والعشاء ، وقرآن الفجر صلاة الفجر ، فالآية رمزٌ إلى الصلوات الخمس[١] ﴿ومن الليل فتهجَّدْ به نافلةً لك﴾ أي وقم من الليل بعد النوم متهجداً بالقرآن فضيلةً وتطوعاً لك ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ أي لعلَّ ربك يا محمد يقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الأولون والآخرون وهو مقام « الشفاعة العظمى » قال المفسرون : ﴿عسى﴾ في كلام الله للتحقيق لأنه وعد كريم وهو لا يتخلف ولهذا قال ابن عباس : عسى من الله واجبة أي تفيد القطع ﴿ وقل ربِّ أدخلني مُدخل صدقٍ﴾ أي قل يا رب أدخلني قبري مُدْخل صدق أي إدخالاً حسناً ﴿وأخرجني مُخْرج صدق﴾ أي أخرجني من قبري عند البعث إخراجاً حسناً هذا قول ابن عباس ، وقال الحسن والضحاك : المراد دخوله المدينة المنورة ، وخروجه من مكة المكرمة وذلك حين أخرجه المشركون بعد أن تآمروا على قتله صلوات الله وسلامه عليه[٢] ﴿واجعلْ لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ أي اجعل لي من عندك قوةً ومَنَعة تنصرني بها على أعدائك وتُعزُّ بها دينك ، وقد استجاب الله دعاءه فنصره على الأعداء ، وأعلا دينه على سائر الأديان ﴿وقل جاء الحقُّ وزهقَ الباطل﴾ أي سطع نورُ الحق وضياؤه وهو الإسلام ، وزهق الباطل وأنصاره وهو الكفر وعبادةُ الأصنام ، فلا شرك ولا وثنية بعد إشراق نور الإيمان ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ أي إن الباطل لا بقاء له ولا ثبوت لأنه يضمحل ويتلاشى ، وإن كانت له صولةٌ وجولة فسرعان ما تزول كشعلة الهشيم ترتفع عالياً ثم تخبو سريعاً ، روي أن النبي ﷺ لما دخل مكة عام الفتح كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعودٍ في يده ويقول : ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ فما بقي منها صنمٌ إلا خرَّ لوجهه ثم أمر بها فكسرت[٣] ﴿وننزّل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين﴾ أي وننزّل من آيات القرآن العظيم ما يشفي القلوب من أمراض الجهل والضلال ، ويُذهب صدأ النفس من الهوى والدَّنس ، والشُّح والحسد ، وما هو رحمة للمؤمنين بما فيه من الإيمان

(١) قال القرطبي : وهذه الآية إشارة إلى الصلوات المفروضة بإجماع من المفسرين .

(٢) اختار هذا القول الطبري وهو المشهور ، والمعنى الأول أظهر لأنه سبقه لفظ البعث والغرض الدعاء بالموت على الإيمان والبعث على الإيمان.

(٣) التفسير الكبير للرازي ٢١/٢٣ وأصل الحديث أخرجه البخاري .

وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا

والحكمة والخير المبين ﴿ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ أي ولا يزيد هذا القرآن الكافرين به عند سماعه إلا هلاكاً ودماراً لأنهم لا يصدقون به فيزدادون كفراً وضلالاً ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونآى بجانبه﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من صحةٍ ، وأمنٍ ، وغنىً أعرض عن طاعة الله وعبادته ، وابتعد عن ربه غروراً وكِبْراً ﴿وإذا مسَّه الشرُّ كان يئوساً﴾ أي وإذا أصابته الشدائد والمصائب أصبح يائساً قانطاً من رحمة الله ، والآية تمثيلٌ لطغيان الإنسان فإن أصابته النعمة بطر وتكبَّر ، وإن أصابته الشدة أيس وقنط كقوله ﴿إن الإنسان خُلق هَلُوعاً ، إذا مسَّه الشرُّ جزوعاً ، وإذا مسَّه الخير منوعاً﴾ ﴿قل كلٌّ يعمل على شاكلته﴾ أي كل واحدٍ يعمل على نهجه وطريقته في الهدى والضلال ، فإن كانت نفس الإنسان مشرقةً صافية صدرت عنه أفعال كريمة فاضلة ، وإن كانت نفسه فاجرةً كافرة صدرت عنه أفعال سيئةٌ شرّيرة ﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أي ربكم أعلم بمن اهتدى إلى طريق الصواب وبمن ضلَّ عنه وسيجزي كل عاملٍ بعمله ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمري ربي﴾ أي يسألك يا محمد الكفار عن الروح ما هي ؟ وما حقيقتها ؟ فقل لهم إنها من الأسرار الخفية التي لا يعلمها إلا ربُّ البرية ﴿وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ أي وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا شيئاً قليلاً لأن علمكم قليل بالنظر إلى علم الله ﴿ولئن شئنا لنذهبنَّ بالذي أوحينا إليك﴾ أي لو أردنا لمحونا هذا القرآن الذي هو مِنَّةُ الرحمن من صدرك يا محمد فإن ذلك في قدرتنا ﴿ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً﴾ أي لا تجد من يتوكل علينا باسترداده ، وردّه إليك بعد ذهابه ﴿إلاَّ رحمةً من ربك﴾ أي لكنْ رحمةً من ربك تركناه محفوظاً في صدرك وصدر أصحابك ﴿إنَّ فضله كان عليك كبيراً﴾ أي فضل الله عليك عظيم حيث أنزل عليك القرآن ، وأعطاك المقام المحمود ، وجعلك خاتم المرسلين وسيد الأولين والآخرين ، والمقصود بالآية الامتنان على الرسول بالقرآن والتحذير له عن التفريط فيه ، والخطاب له عليه السلام والمراد أمته ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ أي لو اتفق واجتمع أرباب الفصاحة والبيان من الإنس والجان وأرادوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن لما أطاقوا ذلك ولو تعاونوا وتساعدوا على ذلك جميعاً فإن هذا أمر لا يستطاع وليس بمقدور أحد ﴿ولقد صرَّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي بيَّنا لهم الحجج والبراهين القاطعة ، ووضحنا لهم الحقَّ بالآيات والعِبَر ، والترغيب

ﭐلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾

والترهيب ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ أي ومع البراهين القائمة والحجج الواضحة أبى أكثر الناس إلا جحوداً للحق وتكذيباً لله ورسوله .

البَـــلاَغَـــة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الاستعارة ﴿كل أناس بإمامهم﴾ الإمام الذي يتقدم الناس في الصلاة وقد استعير هنا لكتاب الأعمال لأنه يرافق الإنسان ويتقدمه يوم القيامة .

٢ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ يضرب مثلاً للقلة أي لا ينقصون من ثواب أجورهم ولا بمقدار الخيط الذي في شق النواة .

٣ ـ الطباق ﴿ضعف الحياة وضعف المات﴾ .

٤ ـ المجاز المرسل ﴿وقرآن الفجر﴾ أطلق الجزء على الكل أي قراءة الفجر والمراد بها الصلاة لأن القراءة جزء منها فالعلاقة الجزئية .

٥ ـ الإظهار في مقام الإضمار لمزيد الاهتمام والعناية ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ بعد قوله ﴿وقرآن الفجر﴾ .

٦ ـ التفصيل بعد الإجمال ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه . . ومن كان في هذه أعمى﴾ بعد ذكر كتاب الأعمال .

٧ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿أدخلني مُدْخل صدق﴾ ﴿وأخرجني مخرج صدق﴾ وبين ﴿جاء الحق﴾ ﴿وزهق الباطل﴾ .

٨ ـ إسناد الخير إلى الله والشر لغيره ﴿أنعمنا على الإنسان . . وإذا مسَّه الشر﴾ لتعليم الأدب مع الله تعالى .

لَطِيفَـــة : ذكر أن عالماً ممن ينكر المجاز والاستعارة في القرآن الكريم جاء إلى شيخ فاضل عالم منكراً عليه دعوى المجاز ـ وكان ذلك السائل المنكر أعمى ـ فقال له الشيخ ما تقول في قوله تعالى ﴿ومَنْ كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾ هل المراد بالعمى الحقيقة وهو عمى البصر ، أم المراد به المجاز وهو عمى البصيرة ؟ فبهت السائل وانقطعت حجته .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . . إلى . . ولم يكن له ولي من الذل وكبّره تكبيراً﴾ من آية (٩٠) إلى آية (١١١) نهاية السورة الكريمة

المناسبة : لما ذكر تعالى القرآن وما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على صدق النبي الأمي ، وتحداهم فظهر عجزهم بوضوح إعجازه ، ذكر هنا نماذج عن تعنت الكفار وضلالهم باقتراح خوارق مادية غير القرآن العظيم ، ثم ذكر قصة موسى وتكذيب فرعون له مع كثرة الخوارق والمعجزات التي ظهرت على يديه تسليةً لرسول الله ﷺ عن تكذيب المشركين ، ثم ختم السورة الكريمة بدلائل القدرة والوحدانية .

اللغة : ﴿كِسَفاً﴾ قِطَعاً جمع كِسْفَة كدمِنْة ودِمَن يقال : كسْفتُ الثوبَ أكسِفُه كِسَفاً إذا قطعته قطعاً قال الفراء : سمعت أعرابياً يقول للبزّاز أعطني كِسْفةً يريد قطعة[١] ﴿قبيلاً﴾ معاينةً ﴿ترقى﴾ تصعد ﴿خبَتْ﴾ خبت النار : سكنَ لهبها ، وخمدتْ : سكن جمرها،وهَمَدت : طفئت جملة[٢] ﴿قتوراً﴾ بخيلاً ﴿مثبوراً﴾ الثبور : الهلاك يقال : ثَبَر اللهُ العدوَّ أهلكه ﴿لفيفاً﴾ اللفيف : الجمع من القوم من أخلاطٍ شتى قال الجوهري : اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتّى يقال : جاء القوم بلَفِّهم ولفيفهم ﴿مُكْث﴾ المُكْث : التطاول في المدة يقال مكَثَ إذا أطال الإقامة ﴿تخافت﴾ خافت في الكلام أسَرَّه بحيث لا يكاد يسمع أحد ﴿الأذقان﴾ جمع ذَقَن وهو مجتمع اللَّحْيَين قال الشاعر :

فخرّوا لأذقانِ الوجوه تنوشُهم سباعٌ من الطير العوادي وتنتف

سبب النزول : أ ـ عن ابن عباس أن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة فقالوا : ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه ، فبعثوا إليه إنَّ أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فجاءهم سريعاً ـ وكان حريصاً على رُشدهم ـ فقالوا يا محمد : إنّا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخلَ على قومه ما أدخلتَ على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبتَ الدين ، وسفَّهتَ الأحلام ، وفرَّقت الجماعة ، فإن كنتَ إنما جئت بهذا لتطلب مالاً جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب الشَّرَف فينا سوَّدناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً ـ أي تابعاً من الجنّ ـ بذلنا أموالنا في طلب الطِبِّ حتى نبرئك منه أو نُعذَر فيك ، فقال رسول الله ﷺ : ما بي ما تقولون ، ما جئتكم أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا المُلك عليكم ، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ، فقالوا يا محمد إن كنت غير قابلٍ منا ما عرضنا فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيقَ بلاداً ، ولا أشدَّ عيشاً منا ، فسل ربك يُسيّر لنا هذه الجبال ، ويجري لنا أنهاراً ، ويبعث من مضى من آبائنا حتى نسألهم أحقٌّ ما تقول ؟ وسلْه أن يجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك عنا فأنزل الله ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . .﴾[٣] الآية .

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١/ ٥٦ . (٢) البحر ٦/ ٦٨ . (٣) زاد المسير ٥/ ٨٥ .

ب ـ عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ مختفٍ بمكة ، وكان إذا صلّى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبُّوا القرآن ، ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله عز وجل لنبيه ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾[1] .

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا﴾

التفسير : ﴿وقالوا لن نُؤمنَ لكَ حتى تَفْجُر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ لما تبيّن إعجاز القرآن ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعلّلون باقتراح الآيات والخوارق والمعنى قال المشركون لن نصدّقك يا محمد حتى تشقّق لنا من أرض مكة عيناً غزيرة لا ينقطع منها الماء ﴿أو تكونَ لكَ جنةٌ من نخيلٍ وعِنَبٍ﴾ أي يكون لك بستانٌ فيه أنواع النخيل والأعناب ﴿فتفجرٌ الأنهارَ خِلاَلَهَا تفجيراً﴾ أي تجعل الأنهار تتفجّر فيها وتسير وسطها بقوةٍ وغزارة ﴿أو تُسْقِط السماءَ كما زعمتَ علينا كسفاً﴾ هذا هو الاقتراح الثالث أي تجعل السماء تتساقط علينا قِطَعاً قِطَعاً كما كنتَ تخوّفنا وتزعم أن الله سيعذبنا إن لم نؤمن بك قال المفسرون : أشاروا إلى قوله تعالى ﴿إنْ نَشَأْ نخسفْ بهم الأرضَ أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً من السماء﴾ ﴿أو تأتيَ باللهِ والملائكةِ قبيلاً﴾ أي تُحضر لنا اللهَ وملائكته مقابلةً وعياناً فنراهم ﴿أو يكون لك بيتٌ من زخرف﴾ أي يكون لك قصرٌ مشيَّد عظيم من ذهبٍ لا من حجر أو طين ﴿أو تَرْقَى في السماءِ ولن نؤمن لرُقيِّكَ حتى تُنَزِّل علينا كتاباً نَقْرؤُه﴾ هذا هو الاقتراح السادس والأخير ، وكلُّها تدل على سفهٍ وجهلٍ كبير ، بسنة الله في خلقه وبحكمته وجلاله أي أوتصعد يا محمد إلى السماء بسُلَّم ولن نصدّقك لمجرد صعودك حتى تعود ومعك كتاب من الله تعالى منشور أنك عبده ورسولُه نقرؤه بأنفسنا ﴿قل سبحان ربي هل كنتُ إلا بشراً رسولاً﴾ أي قل لهم يا محمد تعجباً من فرط كفرهم وعنادهم : سبحانَ الله هل أنا إله حتى تطلبوا مني أمثال هذه المقترحات ؟ ما أنا إلا رسولٌ من البشر بعثني الله إليكم فلم هذا الجحود والعناد ؟ ! ﴿وما مَنَعَ الناسَ أنْ يُؤْمنوا إذ جاءهم الهُدَى إلا أنْ قالوا أبعَثَ اللهُ بَشراً رسولاً﴾ ؟ أي إن السبب الذي منع المشركين من الإيمان بعد وضوح المعجزات هو استبعاد أن يبعث الله رسولاً إلى الخلق من البشر ، فلماذا يكون بشراً ولا يكون ملكاً ؟ وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين﴾ أي قل لهم يا

(١) أسباب النزول ص ١٧٠ .

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾

* أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ

محمد : لو كان أهل الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم كما يمشي الناس ساكنين في الأرض مستقرين فيها ﴿لنزَّلنا عليهم من السماءِ مَلَكاً رسولاً﴾ أي لنزلنا عليهم رسولاً من الملائكة ولكنَّ أهل الأرض بشرٌ فالرسول إليهم بشرٌ من جنسِهم ، إذْ جرت حكمة الله أن يرسل إلى كل قومٍ رسولاً من جنسهم ليمكنهم الفهم عنه ومخاطبته ، وهذا تسفيهٌ وتجهيل لمنطق المشركين ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ أي كفى اللهُ شاهداً على صدقي ﴿إنه كان بعبادِهِ خبيراً بصيراً﴾ أي هو تعالى العالم بأحوال العباد وسيجازيهم عليها ﴿ومن يهْدِ اللهُ فهو المُهْتَد﴾ أي من يهده الله إلى الحق فهو السعيد الرشيد ﴿ومن يُضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه﴾ أي ومن يضلله الله عن الحق بسبب سوء اختياره فلن تجد لهم أنصاراً يعصمونهم من عذاب الله ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾ أي يُسحبون يوم القيامة على وجوههم تجرُّهم الزبانية من أرجلهم إلى جهنم كما يُفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه ﴿عمياً وبُكماً وصُماً﴾ أي يُحشرون حال كونهم عمياً وبكماً وصماً يعني فاقدي الحواس لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون ثم يردُّ الله إليهم أسماعهم وأبصارهم ونطقهم فيرون النار ويسمعون زفيرها وينطقون بما حكى الله عنهم ، عن أنس قيل يا رسول الله : كيف يُحشر الناسُ على وجوههم ؟ قال : الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم[1] ﴿مأواهم جهنَّم كلما خَبَتْ زدناهم سعيراً﴾ أي مستقرهم ومقامهم في جهنم كلما سكن لهبها وخمدت نارها زدناهم ناراً ملتهبة ووهجاً وجمراً[2] ﴿ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي ذلك العذاب جزاء كفرهم بآيات الله وتكذيبهم بالبعث والنشور وقولهم أئذا أصبحنا عظاماً نخرة، وذرات متفتتة سنُخلق ونبعث مرة ثانية؟ وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿أولم يروْا أنَّ اللَّه الذي خلق السموات والأرض قادرٌ على أن يخلق مثلهُم﴾ أي أولم ير هؤلاء المشركون أن الله العظيم الجليل الذي خلق هذا الكون الهائل بسمواته وأرضه قادرٌ على إعادة جسد الإنسان بعد فنائه؟ فإن القادر على الإحياء قادر على الإعادة بطريق الأحرى قال في البحر: نبَّههم تعالى على عظيم قدرته وباهر حكمته بقوله ﴿أولمْ يرَوْا﴾ وهو استفهام إنكارٍ وتوبيخ على استبعادهم الإعادة، واحتجاجٌ عليهم بأنهم قد رأوا قدرة الله على خلق هذه الأجرام العظيمة التي بعضُ ما تحويه البشرُ، فكيف يقرون بخلق هذا المخلوق العظيم

(١) أخرجه الشيخان . (٢) قال في التسهيل : المراد كلما أكلت لحومهم فسكن لهبها بُدلوا أجساداً أخر ، ثم صارت ملتهبة أكثر مما كانت .

فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ

ثم ينكرون إعادته[١] ﴿وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾ أي جعل لهؤلاء المشركين موعداً محدَّداً لموتهم وبعثهم ، لا شك ولا ريب في مجيئه ﴿فأبى الظالمون إلا كفوراً﴾ أي أبى هؤلاء الكافرون الظالمون ـ مع وضوح الحق وسطوعه ـ إلا جحوداً وتمادياً في الكفر والضلال ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المعاندين المكابرين ، المقترحين للخوارق والمعجزات : لو كنتم تملكون خزائن رزق الله ونِعَمه التي أفاضها على العباد ﴿إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق﴾ أي إذاً لبخلتم به وامتنعتم عن الإنفاق خوفاً من نفادها ﴿وكان الإنسان قتوراً﴾ أي وكان الإنسان شحيحاً مبالغاً في البخل قال ابن عباس : ﴿قتوراً﴾ أي بخيلاً منوعاً وقال الزمخشري : ولقد بلغ هذا الوصف بالشُّحِّ الغاية التي لا يبلغها الوهم[٢] ، ثم ذكر تعالى أن كثرة الخوارق لا تُنشيء الإيمان في القلوب الجاحدة ، وها هو ذا موسى قد أُوتي تسع آيات بينات ثم كذَّب بها فرعون وملؤه فحلَّ بهم الهلاك جميعاً ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ أي والله لقد أعطينا موسى تسع آياتٍ واضحات الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله وهي « العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم ، وانفلاق البحر ، والسنين » خمسٌ منها في سورة الأعراف ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدَّم آياتٍ مفصلات﴾ والباقي متفرقات ﴿فاسألْ بني إسرائيل إذ جاءهم﴾ أي فاسألْ يا محمد بني إسرائيل عما جرى بيْن موسى وفرعون فإنهم يعلمونها مما لديهم في التوراة قال الرازي : وليس المطلوب من سؤال بني إسرائيل أن يستفيد هذا العلم منهم بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد[٣] ﴿فقال له فرعون إني لأظنُّك يا موسى مسحوراً﴾ أي إني لأظنك يا موسى قد سُحرت فتخبَّط عقلُك ﴿قال لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السموات والأرض بصائر﴾ أي قال له موسى توبيخاً وتبكيتاً : لقد تيقَّنت يا فرعون أن هذه الآيات التسع ما أنزلها إلا رب السمواتِ والأرض شاهدة على صدقي ، تبصِّرُ الناس بقدرة الله وعظمته ولكنك مكابرٌ معاند ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾ أي وإني لأعتقدك يا فرعون هالكاً خاسراً ﴿فأراد أن يستفزهم من الأرض﴾ أي أراد فرعون أن يخرج موسى وقومه من أرض مصر ﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً﴾ أي فأغرقنا فرعون وجنده أجمعين في البحر ﴿وقلنا من

(١) الكشاف ٢/ ٦٩٦ . (٢) التفسير الكبير ٢١/ ٦٥ . (٣) البحر ٦/ ٨٢ .

وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾

بعـده لبني إسرائيل اسكنـوا الأرض﴾ أي وقلنا لبني إسرائيل من بعد إغراق فرعون وجنده اسكنوا أرض مصر ﴿فإذا جاء وعـد الآخرة جئنا بكم لفيفـاً﴾ أي فإذا جاء يوم القيامة جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر مختلطين فيكم المؤمن والكافر ، والبرُّ والفاجر ، ثم نفصل بينكم ونميِّز السعداء من الأشقياء ، ثم عاد إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدره فقال ﴿وبالحـقِّ أنزلناه وبالحـقِّ نزل﴾ أي وأنزلنا هذا القرآن متلبساً بالحقِّ ، لا يعتريه شك أو ريب ، فيه الحكم والمواعظ والأمثال التي اشتمل عليها القرآن وهكذا أُنزل من عند الله ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً بالجنة لمـن أطاع ، ومنذراً بالنار لمن عصى ﴿وقرآنـاً فَرَقْناه لتقْرأه على الناس على مُكْـث﴾ أي وقرآناً نزّلناه مفرقاً منجماً لتقرأه على الناس على تُؤدةٍ ومهل ، ليكون حفظه أسهل ، والوقوف على دقائقه أيسر ﴿ونزّلنـاه تنزيلاً﴾ أي نزّلناه شيئاً بعد شيء على حسب الأحوال والمصالح ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنـوا﴾ خطاب للمشركين الذين اقترحوا المعجزات على وجه التهديد والوعيد أي آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً ، وتكذيبكم له لا يورثه نقصاً ﴿إنَّ الذين أوتـوا العلم من قبله إذا يُتْلى عليهم يخـرُّون للأذقان سجـداً﴾ أي العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من صالحي أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن تأثروا فخرّوا ساجـدين للـّـهِ رب العـالمين ، والجملة تعليل لما تقدم والمعنى : إن لـم تؤمنوا به أنتم فقد آمن به من هو خير منكم وأعلم ﴿ويقولـون سبحـان ربنا إن كان وعد ربنا لمفْعُـولاً﴾ أي يقولون تنزّه الله عن إخلاف وعده إنه كان وعده كائناً لا محالة ﴿ويـخِرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشـوعاً﴾ أي ويخرُّون لناحية الأذقان ساجدين على وجوههم باكين عند استمـاع القرآن ويزيدهم تواضعاً لله قال الرازي : والفائدة في هذا التكرير اختلاف الحالين وهـو خرورهم للسجود وفي حال كونهم باكين عند استماع القرآن[1] ﴿قل ادعـوا الله أو ادعوا الرحمـن﴾ أي نادوا ربكم الجليل باسم ﴿الله﴾ أو باسم ﴿الرحمن﴾ ﴿أيّاً ما تدعـوا فلـه الأسماء الحسـنـى﴾ أي بأي هذين الإسمين ناديتموه فهو حسن لأن أسماءه جميعها حسنى وهذان منها قال المفسرون : سببها أن الكفار سمعوا النبيﷺ يدعو (يا ألله ، يا رحمـن) فقالوا إن كان محمد ليأمرنا بدعاء إله واحدٍ وها هو يدعو إلهين فنزلت الآية مبينة أنهما لمسـمًّى واحد ﴿ولا تجهر بصلاتـك ولا تخافت بهـا﴾ أي لا تجهر يا محمد بقراءتك في الصلاة فيسمعك المشركون فيسبوا القرآن ومن أنزله ولا تُسرَّ بقراءتك بحيث لا تسمع من خلفك ﴿وابتغ بين ذلـك

(١) التفسير الكبير ٢١/ ٦٩ .

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ (١١١)

سبيلاً﴾ أي اقصد طريقاً وسطاً بين الجهر والمخافتة قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقراءة فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله فنزلت[1] ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ أي الحمد لله الذي تنزَّه عن الولد ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ أي ليس له شريك في ألوهيته ﴿ولم يكن له وليٌّ من الذل﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى الوليّ والنصير ﴿وكبِّرْهُ تكبيراً﴾ أي عظِّمْ ربك عظمةً تامة واذكره بصفات العز والجلال ، والعظمة والكمال ، ختمت السورة كما بدأت بحمد الله وتقرير وحدانيته بلا ولد ولا شريك ، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولي والنصير ، وهو العلي الكبير .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام الإنكاري ﴿أبعث الله بشراً رسولاً﴾ ؟ .

٢ ـ الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿ونحشرهم يوم القيامة﴾ اهتماماً بأمر الحشر .

٣ ـ الطباق بين ﴿من يهد . . ومن يضلل﴾ وبين ﴿مبشراً . . ونذيراً﴾ وبين ﴿تجهر . . وتخافت﴾ .

٤ ـ الجناس الناقص بين ﴿محسوراً﴾ و ﴿مثبوراً﴾ لتغير بعض الحروف .

٥ ـ المقابلة اللطيفة ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾ مقابل قولة فرعون ﴿وإني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾.

٦ ـ السجع الرصين الذي يزيد في جمال الأسلوب مثل ﴿فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً مبشراً ونذيراً﴾ ومثل ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً . . وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾ .

« تم بحمده تعالى تفسير سورة الإسراء »

(١) التفسير الكبير ٢١/ ٧٠ .

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

مَعَالِي السيّد حَسَن عبّاس الشربتلي

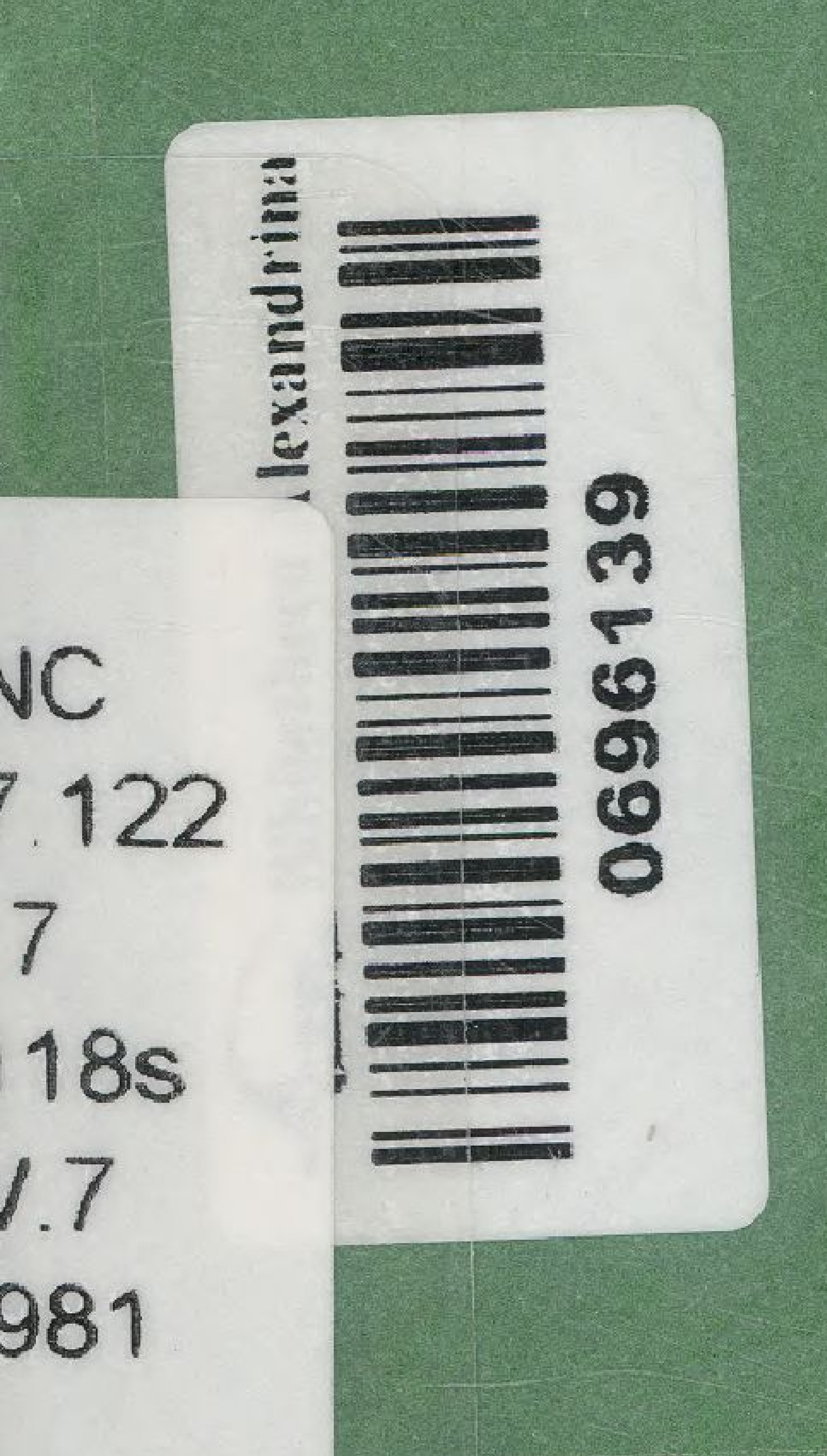
وَجَعَلَهُ وَقْفًا لله تعالى

يُوزع مجانًا ولا يُباع

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقْفًا لِلهِ تعالى



يوزع مجانًا ولا يُباع